

مصدر الأخلاق بين العقليين والتجريبيين

دراسة نقدية في ضوء الإسلام

للدكتور

محمد مصطفى أحمد البيومي

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا

مصدر الأخلاق بين العقليين والتجريبيين
دراسة نقدية في ضوء الإسلام

محمد مصطفى احمد البيومي

قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بطنطا جامعة الأزهر الشريف.

البريد الإلكتروني: Alimabo 75 @yahoo.com

الملخص:

هذا البحث يتناول مسألة من مسائل فلسفة الأخلاق، وهي مصدر الأخلاق، تمت دراستها من خلال المذهبين العقلي والتجريبي مع بيان نظرة الإسلام لهذه المسألة، وقد بدأت البحث بتمهيد بينت فيه معنى الأخلاق لغة واصطلاحا، ثم موضوع العلم، وفائدته، وعلاقته بالعلوم الأخرى، وكان المبحث الأول لبيان مصدر الأخلاق عند العقليين من خلال أهم فلاسفته قديما وحديثا مع مناقشتهم، ثم المبحث الثاني لإبراز المسألة عند التجريبيين من خلال أهم فلاسفته قديما وحديثا أيضا مع مناقشة آرائهم، وختم البحث ببيان مصدر الأخلاق في الإسلام وهو الوحي الإلهي مع بيان علاقة العقل بالحواس.

واتضح من الدراسة: أن المذهبين العقلي والتجريبي نظرا إلى المسألة نظرة أحادية، ويعتريها القصور من كل جانب؛ بخلاف النظرة الإسلامية التي ارتكزت على الوحي الإلهي الذي اتسم بالشمول والوضوح والثبات.

الكلمات المفتاحية: الأخلاق، المذهب العقلي، المذهب التجريبي، اللذة، المنفعة، الإلزام.

The source of ethics between rationalists and empiricists, a critical study in the light of Islam.

Mohamed Moustafa Ahmed Elbayoumi.

Assistant Professor of Creed and Philosophy at the Faculty of Fundamentals of Religion in Tanta, Al-Azhar University.

Email : alimabo75@yahoo.com

Summary:

This research deals with an issue from moral philosophy, It is the source of morals, It has been studied through the rational and empirical doctrines, with an explanation of Islam's view of this issue, I started the research with an introduction in which I explained the meaning of ethics in language and terminology, then the subject of science, its usefulness and its relationship with other sciences. The first topic was a statement of the source of morality for the rationalism through its most important philosophers ancient and modern, with their discussion, and then the second topic to highlight the issue for the empiricism through the most important philosophers ancient and modern, with a discussion of their opinions, The research concluded with an explanation of the source of morality in Islam, which is the divine revelation, with an explanation of the mind's relationship to the senses.

It became clear from the study: that the rational and the empirical doctrines looked at the issue from a unilateral view, and it suffers from shortcomings from every aspect, Contrary to the Islamic view, which was based on the divine revelation, which was characterized by comprehensiveness, clarity, and stability.

Key words: moral, rationalism, empiricism, pleasure, benefit, cram.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد

فهذا بحث في فلسفة الأخلاق، وفي مسألة من أهم مسائله، نبرز فيه رأي المذهبين العقلي والتجريبي الأخلاقي من خلال أهم أعلام المذهبين، وبالطبع سنعرض للآراء بدون تدخل؛ بل نصورها كما أراد أصحابها، ثم نتعرض لها بالنقد والتمحيص.

ومن خلال التناول تبدو الإيجابيات والسلبيات لهذه الآراء الفلسفية، وأي المذهبين كان واقعيا بعيدا عن الأوهام والفرضيات التي يستحيل تطبيقها؟

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١- مسائل علم الأخلاق لها حضور قوي في الدرس العقدي والفلسفي، والكتابة فيها نوع من المساهمة في هذا الصرح العلمي بلا شك.

٢- المذهبان العقلي والتجريبي لهما جذورهما الضاربة في التاريخ الفلسفي منذ أقدم عصورهما، ولا يزال لهما الأثر البارز على كثير من المعاصرين، ولا يخفى ترديد البعض لأفكارهم، التي يرجون من خلالها وضع تصور للأخلاق حسب عقولهم القاصرة، والهدف هو الاستقلال عن التوجيه الإسلامي في ميدان الأخلاق، ومن ثم كان لإظهار عوارهما في الجانب الخلقي الأثر الأكبر في بيان تهافتهما، وعدم صلاحيتهما لقيادة المجتمعات.

٣- بيان القيمة العظمى لهذا الباب في الإسلام، وكيف حث المسلمين إلى ضرورة إرساء الفضائل وتجنب الرذائل وفق المنهج الإسلامي الرشيد الذي يتسم بالربانية والوسطية والشمولية، بخلاف الفلسفات التي تقتصر على جانب واحد للإنسان وتهمل الجوانب الأخرى.

منهج البحث:

سنعتمد في هذه الدراسة على المنهجين التحليلي والنقدي، **فالتحليلي** لبيان الآراء وعرضها من خلال المذهبين محل الدراسة.

والنقدي لنقد الآراء المخالفة للمنهج والواقع من خلال أقوالهم، في ضوء المنهج الإسلامي الرشيد.

خطة البحث: البحث يشتمل على مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة وفهرسين للمراجع والموضوعات.

فالمقدمة: لبيان أهمية الموضوع ومنهج البحث وخطة الدراسة.

والتمهيد: للتعريف بالأخلاق وموضوع العلم وفائدته وصلته بالعلوم الأخرى.

والمبحث الأول: مصدر الأخلاق عند العقليين.

والمبحث الثاني: مصدر الأخلاق عند التجريبيين.

والمبحث الثالث: مصدر الأخلاق في الإسلام.

والخاتمة: تشتمل على أهم النتائج.

وفهرس للمراجع وآخر للموضوعات.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل

التمهيد

الأخلاق تعريفا وموضوعا وثمرة وعلاقتها بالعلوم الأخرى

تعريف الأخلاق:

أولا: في اللغة:

الأخلاق جمع خلق بضم الخاء واللام، وبسكون اللام أيضا، ويراد بها السجية والطبع والمروءة والدين.

قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ القلم ٤' أي على دين الإسلام.

يقول ابن كثير رحمه الله[١]:

(عن ابن عباس وإنك على دين عظيم وهو الإسلام) [٢]

وهذا النص الكريم يشير إلى مصدر الإلزام والمسئولية والجزاء وهو الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿ **إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ** ﴾ الشعراء ١٣٧، يفيد المعنيين معا: الدين والمروءة والطبع. [٣]

والسجية أعم من الطبع لأن بها المطبوع والمكتسب الذى أصبح عادة، ويقصد بالخلق الصورة الداخلية للإنسان، وله صفات ملازمة له إما حسنة وإما قبيحة[٤].

وعلى كل فالمعنى اللغوي يشير إلى ما هو طبع عند الإنسان أو اكتسبه

---

(١) ابن كثير ت٧٧٤ هـ إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشي، أبو الفداء عماد الدين: حافظ مؤرخ فقيه. ولد في قرية من أعمال بصرى الشام، ورحل في طلب العلم. وتوفي بدمشق. من كتبه (البداية والنهاية، شرح صحيح البخاري، تفسير القرآن الكريم، الاجتهاد في طلب الجهاد. انظر: الأعلام – الزركلي- دار العلم للملايين لبنان ط١٥/ ٢٠٠٢م ١/ ٣٢٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – تحقيق. سامي محمد سلامة دار طيبة للنشر والتوزيع ط٢/ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م ٨/ ١٨٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن الكريم – القرطبي – تحقيق. عبد الله عبد المحسن التركي – مؤسسة الرسالة بيروت – ط١/ ٢٠٠٦م ١٦/ ٥٩.

(٤)انظر : لسان العرب - ابن منظور – دار صادر بيروت ط١ – ب .ت - ١٠/ ٨٥، المعجم الفلسفي - د. جميل صليبا- دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٨٢ م ١/ ٥٠، التعريفات – الجرجاني- تحقيق. محمد صديق المنشاوي – دار الفضيلة القاهرة – إيداع ٢٠٠٤م ٨٩.

فصار طبعا له أو اقترب منه، ويشير كذلك إلى الجانب الباطني للأخلاق والظاهري لها.

ولا مرية في تميز النفس عن الجسد، إذ هي مهبط الأسرار الإلهية، ومناط التكاليف القدسية، ففي قوله تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ ص ٧١، ٧٢ نسب الجسد إلى الطين، والروح إلى رب العالمين.

ثانيا: التعريف الاصطلاحي

تعددت التعريفات الاصطلاحية للأخلاق والتي يصعب حصرها، ولكن تناولنا لها من خلال نماذج من تعريف بعض علماء المسلمين، وبعض الغربيين مع عقد مقارنة بينهما.

أ – عند علماء المسلمين:

هناك من عرف الخلق متكئا على الإطلاق اللغوي مضيفا إليه توجه الإرادة الإنسانية إلى العمل منهم **ابن مسكويه**[(١)]، **الغزالي** [(٢)]، **الجرجاني** [(٣)] .

فابن مسكويه يعرف الخلق بأنه:

(حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج كالإنسان الذى يحركه أدنى

---

(١) مسكويه (ت ٤٢١ هـ) أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، أبو علي: مؤرخ بحاث، أصله من الري وسكن أصفهان وتوفي بها. وكان عالما بالكيمياء والمنطق والتاريخ والأدب. من كتبه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، الفوز الاصغر في علم النفس، ترتيب السعادات. انظر: الأعلام - الزركلي ١/ ٢١١- ٢١٢.

(٢) أبو حامد الغزالي : ١٠٥٨ – ١١١١ م، محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، فيلسوف متصوف حجة الإسلام، رحل إلى نيسابور وبغداد والحجاز والشام ومصر وعاد إلى بلدته، من كتبه " إحياء علوم الدين " و " تهافت الفلاسفة " و " الاقتصاد في الاعتقاد " و "٣٣ محك النظر " و " فضائح الباطنية " و" منهاج العابدين " . انظر: الأعلام - الزركلي ٧ / ٢٢، ٢٣.

(٣) الجرجاني (١٣٤٠ – ١٤١٣ م) علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني فيلسوف من كبار العلماء بالعربية، له نحو خمسين مصنفاً من أهمها " التعريفات " و " شرح مواقف الإيجي " و " تحقيق الكليات " . انظر: الأعلام- الزركلي ٥ / ٧ .

شـيء نحـو الغضـب ويهيج مـن أقل سـبب،..... ومنهـا مـا يكـون مسـتفادا بالعـادة والتـدريب، وربمـا كـان مبدؤه بالرويـة والفكـر ثـم يسـتمر عليـه أولا فـأول حتـى يصير ملكة وخلقا) [١]

ويتابعه الجرجاني في نفس المعنى فيعرف الخلق بأنه (عبـارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعـال بسـهولة ويسـر من غير حاجـة إلـى فكـر وروية)[٢]

هذان التعريفان كمـا بـدا ركـزا تركيـزا كـاملا علـى حالـة الإنسـان الباطنيـة التي توجهه إلى الفعل ووصفاها بكونها راسخة لا تنفك عن الإنسان، وهذا معنـى الطبع والسجية الواردان في الإطلاق اللغوي للأخلاق.

أما الإمام الغزالي فقد أضاف جانبا مهما في تعريفه للأخلاق، وهو الفعل الناشئ عن اعتقـاد، وهـذا جانـب مهم للغايـة يحـدد نيـة الفاعل وهدفـه هـل مجـرد السلوك الحسن الناشئ عن طبيعته أم إرضـاء للمولـى تبارك وتعالـى.

يقول الغزالي: (الخلـق عبـارة عن هيئـة فـي النفس راسـخة، عنهـا تصـدر الأفعال بسهولة ويسر من غيـر حاجـة إلـى فكـر ورويـة، فـإن كانـت الهيئـة بحيث تصدر عنها الأفعال المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئـة خلقـا حسـنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا) [٣]

ومن ثم فقد اشتمل تعريـف الغزالـي علـى الجـانبين معـا، الإرادة والاعتقـاد وهي إضافة لها قيمتها بلا شك لبيان مصدر الأخلاق.

ب ـ عند الفلاسفة المحدثين

عرف كانط[٤] **الخلق بأنه** : عادة الإرادة.

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- ابن مسكويه- المطبعة الحسينية المصرية ١٣٢٩هـ ٢٥.

(٢) التعريفات - الجرجاني ٨٩.

(٣) إحياء علوم الدين – الغزالي – دار المعرفة بيروت – ب. ت - ٣/ ٥٣.

(٤) إيمانويـل كـانط ١٧٢٤ – ١٨٠٤م فيلسـوف ألمـاني، أعجـب باللغـة اللاتينيـة والرواقيـة، وتأثر بهيوم، وقال أنه أيقظه من سباته الدوجماطيقي، كانت فلسفته توفيقاً بين الحسيين والعقليين، مع نقد للميتافيزيقا، من أهم كتبه: " نقد العقل الخالص النظري"، " مقدمة لكل ميتافيزيقـا مستقبلة تريـد أن تعتبـر علمـاً "، " نقد العقل العملـي ". انظـر: تـاريخ الفلسـفة الحديثة - يوسف كرم- مؤسسة هنداوي القاهرة ٢٠١٢م ٢٢١ وما بعدها.

يقول كانط:

(من بين الأمور التي يمكن تصورها في هذا العالم أو حتى خارجه لا يوجد شيء يمكن عده خيرا على وجه الإطلاق، ودون قيد اللهم إلا شيء واحد هو: الإرادة الخيرة) [١].

هذه الوجهة في تعريف الخلق تفتقر إلى تدخل الإرادة الإنسانية والمعيار الثابت الذي يلتزم به الأفراد، فالتعريف يشير إلى العادة التي اعتادها الإنسان في أفعاله دون نظر إلى إرادة الفاعل واعتقاده، ومن ثم فهو إلى التعريف اللغوي أقرب.

يقول د/ مهران:

(واضح أن هذا التعريف يستلهم المعنى اللغوي لكلمة الأخلاق، ولو حللنا هذا التعريف لاكتشفنا أنه غير دقيق، ذلك لأن العادات ما هي إلا أنماط من السلوك الإرادي ترسخت من كثرة إتيانها وتكرارها حتى أصبحت عادة يقوم بها المرء دون جهد يذكر، وتلغى تقريبا دور الإرادة في الفعل، وبذلك يفقد الفعل كل ما له من قيمة أخلاقية، لأن قيمة الفعل الأخلاقي تكمن في إخضاعه إراديا لمجموعة من القواعد أو المبادئ والحكم عليها في ضوء مقاييس معينة للخير)[٢].

ومن التعريفات أيضا أنه (علم الخير والشر) و(علم الواجبات) [٣].

ولكن هذين التعريفين غير جامعين، إذ اهتما بالناحية النظرية لعلم الأخلاق وأهملا تماما الناحية العملية، ومجرد تحصيل قواعد العلم نظريا لا يجعل الإنسان ذا أخلاق حسنة، فالمعرفة وحدها لا تجعل الإنسان متخلقا؛ لأن التخلق تلبس بالفعل بالأخلاق الفاضلة لا مجرد الدراسة النظرية فحسب[٤]. ومن ثم فهذا العلم له جانبان: نظري، وعملي.

---

(١) تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق - كانط – ترجمة عبد الغفار مكاوي- مراجعة عبد الرحمن بدوي – مؤسسة هنداوي ٢٠١٧م ٢٧.

(٢) تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية- د. محمد مهران- دار قباء القاهرة ١٩٩٨م ٢٠.

(٣) دراسات في فلسفة الأخلاق – د. محمد نصار- مكتبي لطباعة الأوفست ١٩٨١م ١٨.

(٤) نفس المصدر والصفحة .

ومن هنا نستطيع القول بأن تعريف علماء المسلمين – كما رأينا وبالأخص الغزالي – كان تعريفا جامعا مانعا اهتم بالناحية الإرادية عند الإنسان، وكذلك معتقده، والغاية التي يصبو إليها وهي الابتعاد عن الشر وتحقق الخير، والمعيار الحاكم لفعل الإنسان وهو موافقته للشرع مما يجعل الإنسان ملتزما بأحكامه بعيدا عن الهوى والرغبة.

موضوع علم الأخلاق

لكل علم موضوعه الخاص به الذي يميزه الذي يميزه عن غيره من العلوم، وإذا نظرنا إلى العمل الإنساني الذي هو محل عناية الأخلاق نجده إما عمل إرادي يتم بمحض إرادة الإنسان، أو غير إرادي لا دخل للإنسان فيه، وعلم الأخلاق يهتم بالأعمال الإنسانية الإرادية الصادرة عن الإنسان بحرية واختيار.

أما الأعمال التي تصدر بعيدا عن ذلك فليست من الأخلاق في شيء، كأعمال الآلات الداخلية للإنسان – كالجهاز التنفسي والهضمي – التي تقوم بعملها ليلا ونهارا نوما ويقظة فليست داخلة في إطار الأخلاق، ومن ثم فقيد الأعمال بالإرادية قيد أساسي حتى تتحقق أركان المسؤولية الخلقية، والمسؤولية الخلقية لا توجد إلا حيث وجدت الإرادة، فما لا دخل للإنسان فيه لا يؤاخذ عليه بمدح أو ذم. (١)

إذن موضوع علم الأخلاق:

الأعمال الإنسانية الإرادية التي يترتب عليها الحكم بالخير أو الشر، وتتحقق من خلالها المسؤولية والجزاء.

فائدته وثمرته:

علمنا من خلال ما سبق أن لعلم الأخلاق جانبين: نظري، وعملي.

ويمثل الجانب العملي المقام الأعلى في هذا العلم؛ إذ لا فائدة من علم لا يعقبه عمل، وبناء على هذا التقسيم تكون فائدة هذا العلم متمثلة في:

بيان ما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني، وهى غاية نظرية، ثم

---

(١) نفس المصدر ١٩-٢٠، كتاب الأخلاق - أحمد أمين – مؤسسة هنداوي القاهرة ٢٠١٢م ١٠ - ١١، مباحث في فلسفة الأخلاق – د. محمد يوسف موسى – مؤسسة هنداوي ٢٠١٨م ١١، ١٢.

التحلي بفضائل الأعمال والتخلي عن الرذائل، وهى غاية عملية، فهو علم يهتم ببيان الفضائل ليتحلى بها الإنسان، والرذائل ليتخلى عنها، ولا شك أن (دراسة الأخلاق تكسب صاحبها الدقة في تقدير الأعمال الأخلاقية ونقدها والحكم عليها حكما صائبا، ففرق كبير بين حكم يعتمد على البحث والدراسة، وحكم آخر لا يستند إلا إلى مجرد العرف والتقاليد) [١]

إن علم الأخلاق ليس مقصورا على معرفة النظريات فحسب، بل بالأحرى التأثير في إرادتنا وهويتنا، وحملنا على أن نشكل حياتنا ونصبغ أعمالنا حتى نحقق المثل الأعلى للحياة، فهو يشجع الإنسان على توجه إرادته نحو عمل الخير.[٢]

فالأخلاق على هذا (وسيلة ناجحة من وسائل التربية والتهذيب؛ لأن البحث في الفضائل وتبني حسن عاقبتها وتعرف الرذائل وسوء مغبتها، وكذلك دراسة كثريين ممن كانوا في حياتهم العملية مثلا سامية للفضائل، كل ذلك يستهوي الدارس ويغريه بالتحلي بالفضيلة والتخلي عن الرذيلة، وبأن ينشئ نفسه على غرار هؤلاء الفضلاء) [٣].

فغاية علم الأخلاق بناء على هذا التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل حتى تتحقق السعادة للفرد والمجتمع، وعلى هذا يكون علم الأخلاق مقوم للسلوك الإنساني وموجه له يبين للإنسان الطريق ويوضح معالمه، ويبقى استعداد الشخص هو العامل الأكبر في سلوك هذا الطريق المرسوم وخوض غماره.

علاقة علم الأخلاق بغيره من العلوم:

ما دام علم الأخلاق يهتم بدراسة الإنسان، فلا شك لابد من وجود رابطة بينه وبين باقي العلوم الإنسانية الأخرى، مع الاعتقاد بتميز كل علم عن باقي العلوم بدراسته لجانب معين من جوانب الإنسان.

فهناك **علاقة بين علم الأخلاق وعلم النفس،** فالظاهرة الأخلاقية سلوك

---

(١) تطور الفكر الأخلاقي – د. محمد مهران ٣٣، وانظر: مباحث في فلسفة الأخلاق – د. محمد يوسف موسى ١٦.

(٢) انظر: الأخلاق– أحمد أمين ١٢ -١٣، تطور الفكر الأخلاقي- د. محمد مهران ٣٢.

(٣) مباحث في فلسفة الأخلاق – د. محمد يوسف موسى ١٦.

إنساني ناشئ عن عوامل داخلية بالدرجة الأولى من ميول ورغبات وتفكير وإرادة وشعور وعواطف ولذة وألم، وهى من خصائص علم النفس ومباحثه الكبرى، ودارس الأخلاق لا غنى له عنها؛ ليتمكن من الحكم على الأفعال التي تتأثر بهذه القوى النفسية المختلفة، ويوضح هذه العلاقة حرص كثير من فلاسفة وعلماء الأخلاق على اشتمال كتبهم لمباحث رئيسة في علم النفس، وليس معنى ذلك أن العلمين مترادفان، إذ غاية علم النفس دراسة الظواهر النفسية بلا إبداء لحلول المشاكل، بخلاف علم الأخلاق الذي يرسم الطريق السوي للسلوك. [١]

وهناك **صلة بين علم الأخلاق وعلم الاجتماع**؛ لأن الأخلاق يظهر أثرها في المجتمع، ولا تؤتى ثمارها إلا في بيئة صالحة لها، فالفرد لا يمكن أن ينعزل عن مجتمعه، وعلم الاجتماع هو الذي يحدد المثل الأعلى للنظم الاجتماعية التي يستطيع الفرد من خلالها أن يحقق غرضه. [٢]

كذلك (علم الاجتماع يدرس المجتمعات الإنسانية وتطورها، والقوانين التي تخضع لها في تطورها وتقدمها أو انحلالها، وبهذا يكشف لنا عن كثير من العوامل التي يتأثر بها المرء في تفكيره وعمله؛ كالأسرة، والأمة، والدين، .... ومن ذلك يتبين لنا مقدار ما بين العلمين من صلة متينة) [٣].

كذلك **هناك صلة بين علم الأخلاق والاقتصاد**، فالاقتصاد يهتم بدراسة حياة الناس من حيث الثروات ومصادرها وطرق توزيعها وأثرها في السلوك الاجتماعي، والعلاقة الاقتصادية إذا لم تقم على أساس أخلاقي لكان المصير شرا بلا ريب[٤].

هناك أيضا **علاقة بين علم الأخلاق وعلم القانون**، فكل منهما له ضوابطه ومعاييره لضبط السلوك الاجتماعي، بينما يختص القانون بمراقبة

---

(١) انظر: دراسات في فلسفة الأخلاق د. محمد نصار ٢٦، أحمد أمين– الأخلاق ١٣، مباحث في فلسفة الأخلاق – د. محمد يوسف موسى ٣٩ .

(٢) انظر: الأخلاق - أحمد أمين ١٣ .

(٣) مباحث في فلسفة الأخلاق – د. محمد يوسف موسى ٤٠.

(٤) انظر: دراسات في فلسفة الأخلاق – د. محمد نصار ٢٨، مباحث في فلسفة الأخلاق – د. محمد يوسف موسى ٤٠.

الأعمال الظاهرة للإنسان، على حين يتميز علم الأخلاق باهتمامه بالبواطن والضمير، وهو ما يظهر أثره عند غياب المراقب القانوني[١].

فالقانون يهتم بتصرفات الإنسان الخارجية، بينما الأخلاق تبرز الجانب الباطني وتهتم به، وهذه العلاقة بين الأخلاق وهذه العلوم يدل دلالة قاطعة على أهمية هذا العلم، ومدى الحاجة إليه في هذه التخصصات المختلفة.

---

(١) انظر: نفس المصدر ٢٧-٢٨.

المبحث الأول

مصدر الأخلاق عند العقليين

تمهيد:

تعددت المحاولات الفلسفية على مر العصور لتقديم منهج أخلاقي يقود البشرية إلى السعادة، فبحثوا عن المصدر والوسائل التي تقودهم إلى هذه الغاية، فهل نجح الفلاسفة في سعيهم نحو هدفهم المنشود؟ أم ظلت هناك تساؤلات هادمة لنظرياتهم لا يستطيعون الإجابة عنها، ومعارضات متتالية لا يصمدون أمامها؟

الواقع أننا أمام مذاهب فلسفية أخلاقية كثيرة، وبالطبع لن نتمكن من عرض كافة المذاهب الأخلاقية على مر التاريخ، ولكن وقفتنا مع الفلاسفة ستكون عبر المذهبين العقلي والتجريبي[(١)]، من خلال التركيز على أهم أعلامهما.

الطابع العام للمذهب العقلي

يرى أنصاره أن الإنسان فضل بالعقل بين الكائنات، وهو وحده الذي ينشد الكمال والرقى من بينها، والحياة الفاضلة في نظرهم هي التي تسير وفق عقل سليم وأحكامه صادقة تماما وبصورة محتومة تتخطى الزمان والمكان، ومبادئه فطرية وثابتة وموضوعية، وما الضمير إلا سلطة عقلية[(٢)].

ويرون أن (العقل هو القوة الإدراكية الوحيدة التي تميز بين الخير والشر في السلوك) [(٣)].

---

(١) فالعقلي: هو المذهب الذي يقرر أن الفيلسوف يمكنه أن يصل إلى معرفة جوهرية عن طبيعة العالم بغير اللجوء إلى أي مقدمات تجريبية، ويرى ان كل ما هو مجرد مردود إلى مبادئ عقلية من أهم فلاسفته في العصر الحديث: ديكارت، وليبنتز، وسبينوزا.

والتجريبي: هو المذهب الذي ينكر وجود مبادئ أولية عقلية ويقرر أن التجربة هي مصدر المعرفة والقائل بأن معارفنا إما إحساسات، أو راجعة إلى إحساسات وهو بذلك يرد المعقول إلى المحسوس.

انظر: المعجم الفلسفي - د. مراد وهبة- دار قباء الحديثة ٢٠٠٧ م ١٦٥، ٢٧٩، ٤٢٨.

(٢) انظر: الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها – د. توفيق الطويل- دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٧م ١٦٦- ١٦٧.

(٣) الاتجاه الأخلاقي في الإسلام – مقداد يالجن- مكتبة الخانجي بمصر ط١/ ١٩٧٣م ٢٧٥

وصاحب هذا المذهب يعتقد أنه يستطيع أن يعثر على حقائق واضحة بذاتها من نفس النوع الذي يصل إليه منطقيا ورياضيا وميتافيزيقيا[١].

العقل إذا هو مصدر الأخلاق عند أصحاب هذا المذهب.

أهم فلاسفته في الفلسفة اليونانية:

هيراقليطس[٢].الذي يري أن الكون في تغير مستمر، ولكن هناك أشياء ثابتة لا يلحقها التغير أهمها العقل الإنساني[٣]. ومن ثم يحكم على الفعل من خلاله، وصلاح النفس من خلال اتباعها للعقل، وفسادها من خلال الابتعاد عنه[٤]..

ويؤكد بوضوح أن (آية الفعل النبيل خضوعه لقانون العقل، وآية الفعل الخسيس منافاته لهذا القانون) [٥] **وسقراط**[٦]. الذي قاوم الشك السوفسطائي بتحديده معاني الألفاظ، ومنها بلا شك الألفاظ الأخلاقية من العدالة والخير والفضيلة ....الخ، وجعل سقراط العقل مسيطرا على جسد الإنسان وشهواته وأهوائه، وعن هذا العقل تصدر قوانين الأخلاق[٧].

---

(١) انظر: الفلسفة أنواعها ومشكلاتها – هنترميد- ترجمة د. فؤاد زكريا – دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة ط٢/ ١٩٧٥م ١٩٢.

(٢) هيراقليطس: ٥٤٠ – ٤٧٥ ق. م، كان ميالاً إلى الزهد، ومنتقداً لسابقيه، ويضمر احتقاراً للعامة، والمعتقدات الدينية كان يسخر منها، وكان أسلوبه غامضاً مبهماً. انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية - يوسف كرم- مؤسسة هنداوي ٢٠١٤م ٣٠.

(٣) انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية – يوسف كرم ٣٢.

(٤) انظر: الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها – د. أميرة حلمي مطر- دار قباء القاهرة ١٩٩٨م ٦٦.

(٥) مشكلات فلسفية – د. توفيق الطويل وآخرون – وزارة المعارف المصرية – جريدة الصباح ١٩٥٤م ٢٣

(٦) سقراط: ٤٦٩ / ٣٩٩ م ق. م – فيلسوف يوناني، كان له أثر كبير في تاريخ الفلسفة، إذ صار اسمه وسطاً بين مرحلتين ما قبله وما بعده، عمل بالبحث كأبيه، أفاد من السوفسطائيين حتى كون لنفسه منهجاً نقدهم من خلاله كان يدعو إلى العمل والأخلاق وكان مجاهراً بالحق والعدل. انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية - يوسف كرم ٦٧ وما بعدها.

(٧) انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية – يوسف كرم ٧٠ وما بعدها. وانظر: الفلسفة الخلقية - د. توفيق الطويل ٣٣ – ٣٤.

إهمال سقراط للعواطف والانفعالات جعل مذهبه قاصرا، وبعيدا عن الواقع (فالتجربة تشهد بأن الناس يدركون الخير ومع هذا ينصرفون عنه، ويعرفون الشر ولا تحول معرفتهم له دون الإقبال عليه) (١)

وعلى هذا النسق سار أفلاطون(٢) الذي قال كأستاذه بتمييز الجانب العقلي عن الحسي عند الإنسان، ولا بد من إقامة قانون أخلاقي عام يكون ملزما للناس في كل زمان ومكان وهذا الجانب المشترك بين الناس هو العقل،ويسمو الإنسان بمقدار ما يتحرر من قيود الحس، وبخضوع الشهوات لصوت العقل يتحقق الخير الأقصى، فالعقل هو الذي يلزم الإنسان باتباع الخير وتجنب الشر، ويزهد في مباهج الحياة ويقبل على الموت. (٣) فالحكمة هي أساس الفضائل، ولولاها لوقع الإنسان في براثن الشهوات وكافة الرذائل. (٤)

وتابع هذا التيار العقلي أيضا **أرسطو**(٥) الذي قرر كأفلاطون أن الإنسان متميز بعقله عن باقي المخلوقات، وعلى قدر تأمله وتفكره يكون كماله، وتوقف أرسطو عند هذا القدر ولم يغال في شأن العقل، بل اهتم أيضا بالجانب الحسي عند الإنسان، فيشير إلى أنه ليس من عمل العقل أن يميت الحس، بل دوره تقويم الحواس وضبطها، مع الوضع في الاعتبار أن الحس أدنى درجة من العقل فهو وحده القادر على وضع القانون الأخلاقي الذي يجب أن يسير عليه الإنسان، ولا بد من إخضاعها لحكم العقل، ولن تتحقق السعادة الإنسانية إلا في حياة التأمل

---

(١) الفلسفة الخلقية - د. توفيق الطويل ٣٩.

(٢) أفلاطون: (٤٢٧ – ٣٤٧ ق. م) فيلسوف يوناني، تتلمذ على يد سقراط، وكان محباً للشعر والرياضيات، وزار مصر فأخذ بنصيب من علم الفلك، وأنشأ مدرسة في أثينا سنة ٣٨٧ سميت بالأكاديمية. من مؤلفاته " المحاورات " و " القوانين " و " الجمهورية ". انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية- يوسف كرم ٧٩ وما بعدها.

(٣) انظر: الفلسفة الخلقية – د. توفيق الطويل ٥٦.

(٤) انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية – يوسف كرم ١١٥.

(٥) أرسطو طاليس: ٣٨٤ – ٣٢٢ ق. م، فيلسوف يوناني، دخل أكاديمية أفلاطون في سن الثامنة عشرة، ولذكائه سماه أفلاطون بـ (العقل والقرَّاء) وظل ملازماً لأفلاطون حتى وفاته، من أهم مصنفاته " المقولات " و " العبارة " و " التحليلات الأولى " و " التحليلات الثانية " و " النفس ". انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية - يوسف كرم ١٣٧ – ١٣٩.

والنظر العقلي المجرد، وهنا نجد فارقا بين أفلاطون وأرسطو، فأرسطو كان واقعيا أكثر من أفلاطون حيث ذهب إلى أن تحقق السعادة ميسور في هذه الحياة.[١]

لذا وجدنا أرسطو قد جمع في فلسفته بين الحس والعقل، الواقع والمثال، مع الوضع في الاعتبار أن المقام الأعلى للعقل، فهو مصدر الأخلاق ولن تصل إلى غايتها وهي الحصول على السعادة إلا من خلاله فقط. إن (السعادة يجب أن تكون الفعل المطابق لأشرف فضيلة، وأشرف فضيلة هي فضيلة العقل النظري؛ لأنه أشرف جزء فينا وموضوعه أشرف الموضوعات أعني الموجودات الدائمة الثابتة، والنظر هو الفعل الذي نستطيع أن نزاوله زمنًا أطول من أي فعل آخر، وهو يعود علينا بلذة لا تعدلها لذة نقاء ودواما، وهو محبوب لذاته بينما سائر الأفعال مرتبة لأشياء أسمى منها، إن العقل يشغل مكانا ضئيلا، ولكنه يفوق جميع القوى بما لا يقاس قوة وكرامة) [٢]

وبعيدا عن هذا الاتزان نلتقي مع **المدرسة الرواقية**[٣]. التي غالت في شأن العقل، فبعد أن كان العقل مسيطرا على الحس عند سقراط وأفلاطون وأرسطو – والأخير بالذات الذي أشار إلى ضرورة تقويم العقل للحس، إذ بالرواقيين يجعلون من العقل بديلا للحس، معنى ذلك أنهم يقولون بإماتة الشهوات، وهذا القول ناتج عن شعور الرواقيين بارتباط الوجود كله، ووحدة الجنس البشرى، لأن القانون الطبيعي لا يسرى على الكون الطبيعي فقط، وإنما يسرى على الإنسان أيضا[٤].

وتصبح (الفضيلة هي العيش وفاقا للعقل، وترتد الأخلاقية إلى حكم العقل،

---

(١) انظر: الفلسفة الخلقية – د. توفيق الطويل ٦٦ وما بعدها، تطور الفكر الأخلاقي – د. محمد مهران ٧٥.

(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية – يوسف كرم ٢٣٥.

(٣) الرواقية معاصرة للأبيقورية ومعارضة لها، وضع أصولها " زينون " ثم " أقلاينتوس " ٣٣١ – ٢٣٢ ق. م ثم أفريسيبوس ٢٨٢ – ٢٠٩ ق. م والرواقيون ماديون يرجعون المعرفة إلى الحس فقط. انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية- يوسف كرم ٢٦٧ بخلاف مذهبهم في الأخلاق.

(٤) انظر: الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها – د. أميرة حلمي مطر ٣٨٣-٣٨٤.

ويستبعد الهوى كما تستبعد إرادة الفرد باعثا على الأفعال الإنسانية، والحكيم هو الذي يخضع حياته واعيا لسنن الوجود كله، ويعتبر نفسه مجرد ترس في الآلة الكبرى، يسير معها ولا يشذ عنها) [١].

ويرجعون كل الفضائل للعقل باعتباره الأساس والغاية (فليس للفضيلة موضوع خارجي تتوجه إليه، ولكنها تنتهي عند نفسها وتقوم في إدارة المطابقة مع الطبيعة، وليست تقاس قيمتها بغاية تحققها ولكنها هي الغاية تشتهى لذاتها، فهي كاملة منذ البداية، تامة في جميع أجزائها) [٢].

هذا الموقف المتشدد من الرواقيين جعلهم عرضة للنقد بلا شك.

ومن أهم هذه الانتقادات:

-عدم قدرة الإنسان على تغيير وضعه الاجتماعي ما دامت الطبيعة هي التي وضعته في هذه المنزلة، فالإنسان عندهم عبارة عن ممثل يجب عليه أن يحسن أداء الدور، أما اختياره أو تعديله فليس بوسعه القيام به[٣].

-ينتج عن قولهم بإماتة اللذات أن الفضائل تطلب لذاتها، وجزاؤها كامن في اقتنائها، وهذا يؤدى بلا شك إلى إنكار الحياة الأخرى، وإماتتهم ما هو فطري في الإنسان يجعل فلسفتهم قاتمة عابسة جامدة غير صالحة للمجتمع[٤].

ومن خلال ما سبق يمكن القول بأن أرسطو كان أدق فهما لطبيعة الإنسان البشرية، فلم يرتفع بالعقل الإنساني للدرجة التي يمحو معها أي دور للحس، فليس في فلسفته الخلقية تجرد للنفس من أهوائها وملذاتها، أو إماتتها بالمرة، ولكنه جعل العقل هو القائد للحس فمهمته التنبيه والضبط للغرائز، وهذا ما جعل فلسفته متميزة عن الرواقيين الذين قالوا بضرورة استئصال الأهواء والشهوات.

ولكن هل العقل يمكنه توجيه الإنسان أخلاقيا، مع عدم توجيه أي نقد له؟ تتضح الإجابة على هذا التساؤل من خلال التعقيب على المذهب العقلي بعد الانتهاء من عرضه في العصر الحديث.

---

(١) الفلسفة الخلقية – د. توفيق الطويل ٨٨.

(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية – يوسف كرم ٢٧٣.

(٣) انظر: الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها – د. أميرة حلمي مطر ٣٨٥.

(٤) انظر: دراسات في فلسفة الأخلاق – د. محمد نصار ٣٤١.

أهم فلاسفته في العصر الحديث:

ديكارت: [١]

تناول ديكارت الفلسفة الأخلاقية في كثير من كتاباته، (ولكنه لم يفرد الأخلاق بكتاب مستقل وإن كان قد حرص على أن يمكن لسلطان العقل ويعلي من شأن إرادة الإنسان وحريته: فالفضيلة عنده تتحقق متى توافر للإنسان عقل يمتاز تفكيره بالوضوح والتميز، ويقترن بإرادة قوية تحكم انفعالاته وتهيمن على أهوائه) [٢] .

جعل ديكارت علم الأخلاق رأس العلوم وثمرتها، ولا بد من معرفة العلوم حتى تصل إلى الثمرة، فقال في تشبيهه الشهير للعلوم: (الفلسفة بأسرها أشبه بشجرة جذورها الميتافيزيقيا، وجذعها الفيزيقا[٣]، والفروع التي تخرج من هذا الجذع هي كل العلوم الأخرى التي تنتهي إلى ثلاثة علوم رئيسية، هي: الطب، والميكانيكا، والأخلاق وأعني الأخلاق الأرفع والأكمل، التي لما كانت تفترض معرفة تامة بالعلوم الأخرى، فقد بلغت المرتبة الأخيرة من مراتب الحكمة) [٤].

لقد اعتمد ديكارت في حديثه عن الأخلاق على العقل الفطري عند الإنسان[٥]، والذي يستطيع من خلاله أن يدرك الحق من الباطل عن طريق

---

(١) رينيه ديكارت: ١٥٩٦ – ١٦٥٠ م. فيلسوف فرنسي، مكتشف الهندسة التحليلية، من كبار فلاسفة المذهب العقلي، لقب بأبي الفلسفة الحديثة، من أهم مؤلفاته " المقال " و " مبادئ الفلسفة " و "رسالة في انفعالات النفس". انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم ٦٧ وما بعدها.

(٢) الفلسفة الخلقية – د. توفيق الطويل ١٥٥.

(٣) الميتافيزيقا: أي ما بعد الطبيعة، وهي أحد أقسام الفلسفة، ويراد بها عند أرسطو العلم الإلهي، وعند ديكارت معرفة الله والنفس، وعند كانط معرفة عقلية تتجاوز نطاق التجربة. أما الفيزيقا: يراد به دراسة الطبيعة. انظر: المعجم الفلسفي – مجمع اللغة العربية – الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية – القاهرة ١٩٨٣م ١٤٢، ١٩٧ – ١٩٨.

(٤) مبادئ الفلسفة – ديكارت – ترجمة: د. عثمان أمين – مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠م ٧٠ – ٧١.

(٥) . يطلق على أحوال النفس، أو التجربة الباطنة، ومبادئ المعرفة القبلية. انظر: المعجم الفلسفي- د. جميل صليبا ٢/ ١٥٢ وهذه الأفكار العامة هي الفطرية والتي تولد معرفة بالمعنى الأصيل. انظر: حكمة الغرب – برتراندرسل – ترجمة: د. فؤاد زكريا – مؤسسة هنداوي ٢٠٢١م ٢/ ٥٢.

الحدس المباشر[(١)]، ولم يناد ديكارت بإماتة الشهوات كالرواقيين، ولكنه طالب بدراستها كغرائز أولية يستطيع من خلالها الوصول إلي الخير، وهو ترويض الشهوات وسيطرة العقل عليها[(٢)].

مع إشارة ديكارت الدائمة بأنه بدلا من الخضوع للأشياء ونظامها علينا أن نخضع لله.

وليته وضح طبيعة هذا الخضوع أكثر؛ لأن العقل لا يستقيم بأي حال من الأحوال إلا بالخضوع حقا لله تعالى والتسليم له والوقوف بالعقل عند حده وعدم ولوجه فيما لا طاقة له به، ولكن هل تفرض الأخلاق على العقل فرضا بلا بيان لحكمة أو إقناع بفكرة؟ هنا كان لزاما على ديكارت أن يبين هذه العلاقة بين إرادة الله تعالى للأشياء والعقل بوصفه مصدرا للأخلاق عنده.

ويجعل ديكارت للإرادة دورا كبيرا في السمو بالأخلاق لأنها هي التي تحملنا على فعل الخير مما يؤدى بنا إلى السعادة، والإرادة سلطتها مستمدة من العقل الذي يميز بين الأشياء ويفاضل بينها، وهذا ما يجعل للعقل دورا كبيرا في فلسفة ديكارت[(٣)].

يقول ديكارت: (جميع أنماط التفكير التي نلحظها في أنفسنا يمكن إرجاعها إلى نمطين عامين: أحدهما الإدراك بالذهن، والآخر التصرف بالإرادة) [(٤)].

وينتج عن هذا: أن الخطأ في الحكم لا يرجع إلى الإرادة بقدر رجوعه للإدراك[(٥)].

ولكن هل العقل كفيل بإيصال الإنسان إلى الخير مع هذا التفاوت بين البشر فيه؟ وهل العقل حاكم على الفعل، بمعنى أن ما يراه حقا فهو حق، وما يراه باطلا فهو باطل؟ هل يقصد ديكارت أن الذاتية هي التي تحكم على الأشياء، فيكون

---

(١) الحدس المباشر: الاطلاع العقلي المباشر على الحقائق البديهية وأطلق عليه ديكارت النور الطبيعي. انظر: المعجم الفلسفي- د. جميل صليبا ١/ ٤٥٢-٤٥٣.

(٢) انظر: دراسات في فلسفة الأخلاق – د. محمد نصار ٤٢٤.

(٣) انظر: دراسات في فلسفة الأخلاق – د. محمد نصار ٤٢٥.

(٤) مبادئ الفلسفة – ديكارت ١٢٥ – ١٢٦.

(٥) انظر: نفس المصدر ١٢٦ وما بعدها.

الإنسان مصدرا لمعرفة الخير والشر، وندخل من ثم في جدال سوفسطائي؟

إن اهتمام ديكارت بالإرادة يجعله متميزا في نظرته عن المثاليين الذين اكتفوا بالمعرفة المجردة باعتبارها أما للفضائل كما قال سقراط من قبل، ولا شك أن المعرفة وحدها لا تكفي، فقد يعرف المرء الخير ولا يأتيه ويعرف الشر ويأتيه.

مالبرانش: (١)

اهتم مالبرانش كثيرا بالدين، وجعل عماد فلسفته عليه بالرغم من تأثره الواضح بأستاذه ديكارت، وانتهى (إلى القول بتحكم الإرادة العاقلة في أهواء الإنسان وميوله) (٢)

فالأفكار الفطرية أو الغريزية مصدرها هو الله تعالى، وهو الذي يحدثها في النفس؛ بل الاعتقاد بوجود العالم لا يتم إلا من خلال الوحي، فلا يمكن الاتصال بين العقل والمادة؛ بل أجزاء المادة لا يؤثر بعضها في بعض. (٣)

بل كل شيء إذا تأملنا فيه حق التأمل يردنا إلى الله تعالى بلا ريب. (٤)

وحديث مالبرانش عن الأفكار والوجود بهذا الشكل، وقوله: (إن كل شيء في الله) يلزم عنه القول بوحدة الوجود؛ بل هو النتيجة المنطقية لمذهبه. (٥)

أما الإرادة، فيعرفها مالبرانش بأنها: محبة الخير على العموم، ولا نحب

---

(١) مالبرانش: ١٦٣٨ - ١٧١٥ م. نيقولا مالبرانش. فيلسوف فرنسي، قسيس اتخذ من القديس " أوغسطين " أستاذه الأكبر، وأعجب بمنهج ديكارت الفلسفي، من أهم مؤلفاته " البحث عن الحقيقة " و " الأحاديث المسيحية " و " الأخلاق " و" أحاديث في ما بعد الطبيعة والدين ". انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة - يوسف كرم ١٠٥، تاريخ الفلسفة – اميل برهييه – ترجمة. جورج طرابيشي -دار الطليعة بيروت ط٢/ ١٩٩٣ م ٤/ ٢٣٨ وما بعدها.

(٢) الفلسفة الخلقية – د. توفيق الطويل ١٥٦.

(٣) انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة - يوسف كرم ١٠٦، تاريخ الفلسفة – اميل برهييه ٤/ ٢٥٧.

(٤) انظر: تاريخ الفلسفة – اميل برهييه ٤ / ٢٤١.

(٥) انظر: قصة الفلسفة الحديثة – زكي نجيب محمود – لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦م ١٢٧.

شيئا إلا إذا كان خيرا. [١] وهذا تصور غريب جدا منه؛ إذ كيف يكون توجه الإرادة الإنسانية نحو الخير فقط، مع هذا الاختلاف بين البشر، ورغباتهم المختلفة؟

ويرجع الاختلاف بين الناس في الأخلاق إلى اختلافهم في تكوين العقول من خلال التربية والعادة وظروف الزمان والمكان. [٢]

ذهب كأستاذه إلى ضرورة تأسيس الأخلاق على العقل الفطري، ولكن تجاوز نظرة أستاذه حينما ربط الأخلاق العملية بالدين، ويرجع إليه الفضل في إيضاح فكرة ديكارت وتعميقها، فقرر هذا الفيلسوف أن العقل الإنساني ملكة مشتركة بين الناس، وما دام الأمر كذلك فينبغي أن يكون هناك قانون منظم لسلوك الناس جميعا لأن الإنسان جزء من هذا الكون الذي يسير وفق نظام محكم، وما يحدث من خلل في تصرفات الناس فمرده إلى أسباب غير معقولة لا تتفق والمبادئ الأخلاقية العامة، ويضاف إلى مالبرانش ربطه بين الأخلاق والتربية حيث نادى بضرورة تربية النشء على احترام العقل وتقديسه، ويرى مالبرانش أن في إماتة الشهوات وإطراحها خلوصا إلى عالم العقل والروح، وفي هذا المقام يبدو متشددا عن أستاذه. [٣]

كانط:

تحتل نظرية الواجب عند كانط مكانة كبرى بين النظريات الأخلاقية عند أقرانه العقليين بل صار مقترنا باسمه في كثير من الأحيان إذ عرف بفيلسوف الواجب.

وقد جعل كانط العقل الفطري أساسا لمذهبه الأخلاقي، باعتباره متضمنا لمبادئ أساسية عائدة إلى نور العقل الفطري دون أن تشوبه أية شائبة من المؤثرات المختلفة.

وقد صنف كانط في فلسفته الأخلاقية كتابين: (تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق)، (نقد العقل العملي)، ويخلص منهما إلى أن العقل الفطري هو الأساس الذي تقوم

---

(١) انظر: نفس المصدر ١١٠.

(٢) انظر: نفس المصدر ١١١.

(٣) انظر: دراسات في فلسفة الأخلاق – د. محمد نصار ٤٢٧-٤٣٠.

عليه الأخلاق قياسا على قيام العلم الكلي الضروري عليه، فالعقل هو الذي يمدنا بمعنى الواجب الذي هو الركن الركين في الأخلاق عند كانط[١].

(ويرى كانط أن المقصد الأسمى للرجل الفاضل أن يخضع سلوكه لقانون العقل) [٢].

وهذا موقف طبيعي من فيلسوف مثالي يقدر الإدراك العقلي ويعلي من شأنه.

فما هو الواجب الذي اعتبره كانط ركنا ركينا في فلسفته الخلقية؟

يقول كانط : (الواجب هو: ضرورة القيام بفعل عن احترام للقانون) [٣].

ومصدر هذا الاحترام للقانون الأخلاقي هو العقل، والاحترام ليس هو الدافع للأخلاق؛ بل هو الأخلاق ذاتها كما يقرر كانط[٤].

فالواجب عنده: هو أداء الفعل احتراما للقانون الخلقي لذاته، بغض النظر عن النتائج المترتبة على هذا الفعل[٥].

معنى ذلك: أن فعل الخير لا يهدف إلى تحقيق غرض أو نتيجة، بل هو تصرف منزه عن الغرض لا نلتزم فيه إلا بأصول الخير، ويلزم من ذلك أن يكون فعلنا احتراما للقانون الخلقي وتوقيرا له بعيدا عن أي مطمع شخصي[٦].

لقد (استبدل كانط بفكرة الخير مبدأ الواجب واستعاض عن الضمير بالعقل العملي) [٧].

ويفرق كانط بين خضوع الفرد للواجب وخضوعه لغيره من خلال مثال

---

(١) انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة- يوسف كرم ٢٢٤.

(٢) الفلسفة الخلقية – د. توفيق الطويل ٤١٠.

(٣) تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق – كانط- ٣٥.

(٤) انظر: نقد العقل العملي – كانط – ترجمة- غانم هنا – المنظمة العربية للترجمة بيروت ط١ / ٢٠٠٨م ١٤٩.

(٥) انظر: تطور الفكر الأخلاقي- د. محمد مهران ١٥٩-١٦٠، دراسات في فلسفة الأخلاق- د. محمد نصار- ١٢٦، المشكلة الخلقية – د. زكريا إبراهيم- مكتبة مصر ١٩٦٦م ١٦٤.

(٦) انظر: نفس المصدر ١٦٢-١٦٣.

(٧) الفلسفة الخلقية – د. توفيق الطويل ٣٧٢.

ضربه وهو السرقة فيقول:(إن القانون يأمرنا بالمحافظة على ملكية الآخرين، وما دام المرء لا يسرق أو يعتدي على أملاك الغير، فهو يعمل وفقا لما يقضي به القانون، ولكن الذي يمتنع من السرقة قد يصدر في امتناعه هذا عن بواعث متباينة : كالخوف من العقاب، أو خشية الله أو احترام الرأي العام، أو الخوف من تأنيب الضمير، أو التعاطف مع الأشخاص المعتدى على أملاكهم ٠٠٠الخ، وفي كل هذه الحالات لا يعد الامتناع عن السرقة فعلا خلقيا بمعنى الكلمة، وأما ذلك الذي يقول: إن واجبي يقضي على بألا أسرق احتراما للواجب وللعقل، فهذا وحده هو الذي يعد فاعلا أخلاقيا، كما أن الفعل الذي صدر عنه يعد بحق فعلا خلقيا، وأما كل من عداه فإنهم لا يصدرون في أفعالهم إلا عن بواعث غير أخلاقية) [١]

نستخلص مما سبق أن الواجب عند كانط يتجه اتجاها مباشرا نحو الصورية المحضة البعيدة عن الواقع التجريبي، ويرتفع عن المصلحة الشخصية للفرد، فالإنسان إذا قام بفعل أخلاقي بناء على هذه الرغبة، فإن فعله لا يوصف بالأخلاقي.

وكذلك إذا أدى الفعل احتراما لقانون أو عقيدة لا يدخل في دائرة الأخلاق، ولكن ما يصح فعلا أن يطلق عليه بأنه أخلاقي هو الفعل الصادر عن الفرد احتراما لمبدأ الأخلاق أو القانون الخلقي في ذاته بعيدا عن النوايا أو الغايات الأخرى.

ويضرب كانط مثالا يفرق فيه بين الفعل الناشئ عن القانون الأخلاقي، والقائم على التلقائية المباشرة فيقول:

(إن الإنسان الذي يحافظ على حياته – مثلا- لا يعمل بمقتضى الواجب حينما يكون فعله قد صدر عن التلقائية وحدها، وأما حينما يحافظ الإنسان على حياته حتى حينما يكون في قرارة نفسه قد عاف الحياة، وسئم الوجود، وأصبح يتمنى الموت، فهنالك – وهنالك فقط – تكون لمسلكه قيمة أخلاقية، وكذلك لا يكون الفعل قد صدر عن مبدأ الواجب حينما يكون مجرد ثمرة لميل طبيعي دفعنا إلى إتيان تصرف مطابق للأخلاق. وآية ذلك أن بعض الأفراد الذين يعملون تحت تأثير نزوع طبيعي نحو التعاطف أو المشاركة الوجدانية قد يأتون من الأفعال ما لا ينطوي على أية قيمة خلقية إذا جاء سلوكهم مفتقرا إلى المبدأ

(١) المشكلة الخلقية – د. زكريا إبراهيم ١٦٨.

الخلقي (مبدأ الواجب) الذي لابد للأفعال من أن تصدر عنه. وقد يكون فعل الإحسان الذي يأتيه إنسان لا يشعر بأي ميل طبيعي نحو محبة البشر أشد اتصافا بالصبغة الأخلاقية من فعل رجل محب للبشر لا يصدر في سلوكه إلا عن مجرد ميل طبيعي) [١]

واهتمام كانط الكبير بالعقل كمصدر للأخلاق؛ لأنه وجد فيه التوفيق بين الإلزام والحرية وتحقيق الخير الأسمى – كما يزعم – فقد (اتجه كانط إلى التماس الحياة الكاملة في العقل، وفي العقل وجد مفتاح التوفيق بين سلطة الإلزام وحرية الفرد؛ لأن الإنسان حين يطيع قانون العقل يستجيب لسلطة باطنية يفرضها بنفسه على نفسه، ومن ثم لا يفقد بطاعته حريته) [٢]

ورفض كانط أن تكون تعاليم الدين مصدرا للأخلاق؛ لأنها – كما يزعم – لا تبرر سبب الأمر والنهي الإلهي ولا تبين سببه، وقام بإرجاعها في النهاية أيضا إلى العقل. [٣]

وهذا تطرف في نظرة كانط للعقل كمصدر للأخلاق، وهذا ما جعله يحكم بيقينية المعرفة العقلية في مجال الأخلاق بخلاف الميادين الأخرى التي قد يتطرق إليها الشك، وكان اتصال العقل بعالم الأشياء في نظريته الأخلاقية اتصالا حقيقيا يبدي الأشياء كما هي في الواقع، ويؤكد بكل وضوح أنه يجب الاستجابة لنداء العقل وحده دون اكتراث بوجدان أو عاطفة وإلا افتقد العقل قيمته الخلقية[٤].

وهذا تشدد لا مبرر له من كانط في استبعاد العواطف والوجدانات من كونها باعثا على الأخلاق؛ لأن كثيرا من الأفعال الخيرة تصدر عن عواطف نبيلة، أو بوازع من طاعة الله عز وجل ومرضاته، وهذا يدل على فصل كانط بين العقل والإحساس، والمصدر الوحيد الثابت هو العقل وحده[٥].

---

(١) المشكلة الخلقية- د. زكريا إبراهيم ١٦٧ – ١٦٨.
(٢) الفلسفة الخلقية – د. توفيق الطويل ٣٧٨.
(٣) انظر: نفس المصدر ٣٨٠ - ٣٨١.
(٤) انظر: نفس المصدر ٣٨٣، ٣٨٦.
(٥) انظر: نفس المصدر ٤١٤، ٤١٧.

تعقيب:

من خلال هذا العرض للمذهب العقلي تبين لنا أن فلاسفته اعتمدوا على العقل ومبادئه القبلية العامة، والتي جعلوها أساسا للأخلاق الإنسانية، ولم يكن التناول عند المثاليين على درجة واحدة – كما رأينا – فهناك المعتدل والمتشدد، ومع التقدير الكامل لمنطلق هذا المذهب إلا أن الباحث يأخذ عليهم إغفالهم للواقع التجريبي الذي يتحكم في كثير من الأحيان على تصرفات الناس، والذي يبقى عقبة كؤودا أمام العقليين الذين حلقوا في سماء المثالية بعيدا غير آبهين – في كثير من الأحيان – لأرض الواقع.

هذه النظرة الأحادية جعلت في المذهب العقلي قصورا لا يمكن تفاديه، فقد أغفل هذا المذهب الجانب الحسي في الإنسان كثيرا، فبدلا من مناداة البعض بإماتته والحد منه، فلماذا لا يستغل الاستغلال الأمثل، ويوجه الوجهة الصحيحة ليكون عونا على أداء رسالة الإنسان في الحياة؟

وأين المعيار الذي ترجع إليه العقول عند التنازع والاختلاف؟ فلو اتفق البعض على بعض الأفعال، فلا ريب سيختلفون في غيرها، وسيترك الأمر لكل شخص حسب اجتهاده ومرئياته، فيسير الناس على غير هدى.

كانت نظرة العقليين إذا قاصرة، فهل ظلت سمة القصور هذه ملازمة للتجريبيين، أم كانت نظرة شاملة جديرة بأن تكون أنموذجا صالحا لتوجيه البشرية نحو السعادة المبتغاة؟

الصفحات القادمة – بحول الله وقوته – تتولى الإجابة على هذا التساؤل.

المبحث الثاني
مصدر الأخلاق عند التجريبيين

الطابع العام للمذهب التجريبي

يرى أتباع هذا المذهب أن تأسيس الأخلاق وليد ظروف اجتماعية ودينية واقتصادية تحيط نشأة الفرد وتكتنف حياة المجتمعات، ومن ثم اختلف القانون المنظم للسلوك من مجتمع إلى آخر باختلاف المجتمعات وتغير عصورها، وما دام الأمر كذلك فلا مناص من معالجتها بطريقة تجريبية تتناسب وظروف هذه المجتمعات وطبيعة هذا التغير، وأنكروا وجود قوة فطرية في نفوس البشر، واهتموا بنتائج الأفعال دون بواعثها، وأسس الأخلاق مستمدة من التجربة التي تؤدي إلى تحقيق المصلحة[١].

وقد عرف هذا المذهب بالمذهب النفعي، والذي اتفق فيه أتباعه على أن اللذة هي وحدها الخير الأقصى الذي يسعى الإنسان إلى تحقيقه، والضرر أو الألم وحده هو الشر الأقصى، فالخير في تحقق المنفعة والشر في فواتها أو لحوق الضرر[٢].

واتخذ هذا المذهب صورا متعددة على أيدي كثير من الفلاسفة في مختلف العصور بدءا من الفلسفة اليونانية حتى الحديثة والمعاصرة، فقد سار هذا المذهب جنبا إلى جنب مع المذهب العقلي.

أهم فلاسفته في الفلسفة اليونانية

بدأ هذا المذهب على يد **ديمقريطس**[٣] الذي ذهب إلى أن السعادة هي التي تحقق اللذة والخلو من الألم، وذلك لاعتقاده بأن النفس الإنسانية :

(جسم ناري وهذه الجواهر منتشرة في الهواء، يدفعها إلى الأجسام، فتتغلغل في البدن كله وتتجدد بالتنفس في كل آن، ومادام التنفس دامت الحياة والحركة) [٤].

وما دام الأمر كذلك فلا حياة بعد هذه الحياة ولا سعادة إلا فيها.

---

(١) انظر: الفلسفة الخلقية- د. الطويل ١٦٩، ١٧١، الفلسفة أنواعها ومشكلاتها – هنترميد ١٩٢.

(٢) انظر: نفس المصدر ١٩٢.

(٣) ديمقريطس: فيلسوف يوناني ولد في أبديرا من أعمال تراقية، استفاد من رجل اسمه لوقيبوس يرجح أنه ولد في ملطية ورحل إلى إيليا، وأخذ عن زينون ثم جاء أبديرا وأنشأ فيها مدرسة. انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية – يوسف كرم ٥٤.

(٤) تاريخ الفلسفة اليونانية- يوسف كرم ٥٦، الفلسفة اليونانية- د. أميرة مطر ١١١.

ويمثل **السوفسطائيون**(١) المذهب النفعي في أوضح صوره في الفلسفة اليونانية ذلك لأنهم يرون أن الإنسان هو مقياس كل شيء فما يراه حقا فهو حق، وما يراه باطلا فهو باطل، واللذة عندهم هي الخير الأقصى، ومعيار القيم، ومقياس الأحكام الخلقية .

انطلق السوفسطائيون في الأخلاق من القول بأن (المرء مقياس الخير والشر، فما يحس أنه الخير كان خيرا، وما يشعر أنه الشر كان شرا، وإذن فلا يوجد إلا خير نسبي يلاحظ فيه الفكرة التي يكونها الإنسان عنه، واللحظة التي يحكم فيها عليه، وهذه الفكرة التي يصدر لأجلها الحكم لا يمكن أن نقول عنها أنها خاطئة ما دامت صادرة عن إحساس حق) (٢).

ويقرر السوفسطائيون (أن طبيعة الإنسان تتمثل في شهواته وأهوائه، وأن قوانين الأخلاق ومثلها العليا تتنافى مع الطبيعة الإنسانية، ومن ثم أباح هؤلاء السوفسطائية للإنسان أن يساير طبيعته فيشبع شهواته، ويعصى ما تقتضيه الأخلاق من مبادئ ومثل عليا تهدف إلى مقاومة الأهواء وقمع الرغبات ووأد الشهوات) (٣).

وكذلك **الأبيقوريون**(٤) كانوا على هذا الخط النفعي، فالمنفعة عند **أبيقور** منفعة فردية شخصية، ولم ينظر إلى اللذة في ذاتها بل اهتم بالمنفعة التي تتحقق للفرد، إذ من اللذات ما يسبب ألما (٥).

---

(١) السوفسطائيون: مدرسة اشتهرت بالخطابة والجدل في النصف الثاني من القرن الخامس. ق. م، ولا يبحثون عن الحقيقة في ذاتها، بل كان غرضهم هو الإقناع فقط، ومن ثم تناولوا المذاهب الفلسفية المعروفة بالنقد، وعارضوا بعضها ببعض، واتجروا بالعلم، وشككوا في الدين، ومن أشهر فلاسفتها " بروتاغوارس، و " جورجياس ". انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية- يوسف كرم ٦١ وما بعدها.

(٢) تاريخ الأخلاق - د. محمد يوسف موسى- دار الكتاب العربي مصر ط/ ٣ – ١٩٥٣م ٥٢.

(٣) مشكلات فلسفية - د. توفيق الطويل وآخرون ٢٣.

(٤) تنتسب إلى مؤسسها أبيقور ٣٤١- ٢٧٠ ق.م الذي ولد بجزيرة ساموس، وانقسم المؤرخون في شأنه، تنقل في ربوع آسيا الصغرى باحثا عن الحكمة، ثم استقر بأثينا وأسس مدرسته بها، من أشهر تلامذته: هرمارخوس، مترودوروس، موسا. انظر: الفلسفة اليونانية – د. أميرة حلمي مطر ٣٥٩.

(٥) انظر: مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق – د. توفيق الطويل- مكتبة النهضة المصرية – ط١/ ١٩٥٣م ٥٠ - ٥١.

وهذا يشعر أن أبيقور قد فطن إلى أن اللذة نسبية تقاس دائما بالألم المقابل لها، فلكي تكون اللذة دائمة ينبغي أن نضع في اعتبارنا تلك الملابسات المحيطة بنا[١].

وبناء الفكرة عند الأبيقوريين كان من خلال فلسفتهم المادية التي تجعل الإدراك الحسي عند الإنسان هو المعول عليه في المعرفة والأخلاق معا، ودور العقل الإنساني والحالة هذه هو إشباع اللذة الحسية التي ينشدها الإنسان، فبناء على الفلسفة الأبيقورية إذا (استبعدنا الحس من الإنسان فلن يبقى شيء، ومتى تقرر أن اللذة غاية لزم أن الوسيلة إليها فضيلة، وأن العقل والعلم والحكمة تقوم على تدبير الوسائل وتوجيهها إلى غايتها المنشودة، وهى الحياة اللذيذة السعيدة، فليس من الحق إذن وصف اللذة بأنها جميلة أو قبيحة بشرط أن تكون اللذة هي هي، وأن تكون الوسيلة مؤدية إليها) [٢].

وهكذا كانت المنفعة الفردية هي المحرك لهؤلاء، فما دامت النتيجة طيبة ومرضية للشهوات والأهواء فهي ما يستحق أن يقدم المرء على الفعل من أجلها، وإلا فلا داعي للقيام بأفعال لا يترتب عليها آثار نفعية. فالمصدر المحرك للفعل الخلقي خيرا أو شرا هو: المنفعة الذاتية، ويلزم عن ذلك غياب المعيار العام في الأخلاق الذي يلزم الكافة بعيدا عن الأهواء والغرائز.

واتخذ المذهب النفعي في العصر الحديث صورة مختلفة عما وجدناه عند اليونانيين – مع بقاء هذا الاتجاه مسيطرا على بعض الفلاسفة المحدثين كهوبز – فبعد أن كانت المنفعة فردية، إذا بها تصير منفعة عامة، فالفرد يعمل لتحقيق سعادة المجتمع.

ومن هنا لم ينظر أصحاب المنفعة العامة إلى اللذة الفردية هدفا، بل اعتبروا المنفعة مبدأ أخلاقيا يقضى بتحقيق أكبر سعادة ممكنة للمجموع، فالخير ليس لذة فردية فقط، بل لذة عامة لجميع أفراد المجتمع[٣].

---

(١) انظر: المشكلة الخلقية- د. زكريا إبراهيم ١١٦.

(٢) دراسات في فلسفة الأخلاق- د. محمد نصار ٣٣٧.

(٣) انظر: المشكلة الخلقية- د. زكريا إبراهيم ١٤٨.

أهم فلاسفته في العصر الحديث بنتام[١]،جون استوارت مل .[٢]

ومعهما تحول المذهب النفعي من الفردية الأبيقورية إلى المنفعة العامة.

أما بنتام فيلسوف المنفعة العامة في القرن التاسع عشر، فكان ممثلا لروح عصره المصطبغ بالنزعة التجريبية الشامل لشتى مجالات المعرفة، وكان رجلا قانونيا انتهى به البحث في القانون إلى الاهتمام بالأخلاق والسياسة، وكان مؤثرا على معاصريه فالتف حوله الكثير من المفكرين في مختلف المجالات، وقد تألفت منه ومن تلامذته مدرسة تحمل اسمه وتنشر مبادئه النفعية، وكان لها الأثر الكبير في تشكيل العمل السياسي عند الكثير من السياسيين، وهذا يدل على مدى تأثير الفلسفة في المجتمع. [٣]

أول ما حرك اهتمام بنتام العلوم التجريبية ودقتها، فحرص عليها كل الحرص في تناوله للموضوعات التي يبحثها، وكان تناوله للمسائل الأخلاقية على هذا النحو، فلم يعالج الأخلاق معالجة العقليين، بل درسها كدراسة الطبيعيين الذين ينشدون الدقة والضبط، وبتأثير من العلوم التجريبية قرر بنتام أن مبدأ المنفعة ومبدأ الجاذبية متماثلان، ويؤكد بنتام على أن عبارة (بريستلي) [٤] في

---

(١)جيرمي بنتام ١٧٤٨-١٨٣٢م فيلسوف النفعية الإنجليزي وكشف عن مذهبه في كتابه (المدخل إلى مبادئ الأخلاق والتشريع) أنشأ في ١٨٢٤م مجلة (وستمنستر) داعيا من خلالها إلى الإصلاح الدستوري وكان لذلك الأثر الأكبر على السياسة الإنجليزية .انظر : كرم – تاريخ الفلسفة الحديثة ٣٤٧.

(٢)جون استوارت مل : (١٨٠٦ - ١٨٧٣ م) . فيلسوف انجليزي تجريبي تعلم اليونانية واللاتينية والحساب والتاريخ العام، و المنطق، انتخب عضواً بمجلس النواب، من أهم كتبه: " المنطق القياسي والاستقرائي " و " الاقتصاد السياسي " و " مقال في الحرية " و " محاولات في الدين "، انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة- يوسف كرم ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٣)مذهب المنفعة العامة- د. الطويل ٨٣-٨٤.

(٤) بريستلي جوزيف بريستلي ١٧٣٣- ١٨٠٤ م): فيزيائي وكيميائي إنجليزي، أكمل دراسة اللاهوت والفلسفة فأصبح قسا، حضَر ماء الصودا وحصل على أعلى وسام للجمعية الملكية اللندنية واكتشف بعض المواد منها أكسيد الأزوت . من كتبه :(تاريخ وحاضر البصر والضوء)، (حول مختلف أنواع الهواء)، اتهم بالكفر لمناهضته للكنيسة، وتم حرق بيته، ثم منحته فرنسا لقب مواطن شرف، وانتخب عضوا في البرلمان. انظر: موسوعة علماء الكيمياء – ماجد العدوان – دار عالم الثقافة الأردن ط١/ ٢٠٠١م ٤٨.

كتيبه مقال عن الحكومة (أكبر قسط من السعادة لأكبر عدد من الناس) كانت دافعا كبيرا له في تدعيم هذا المذهب. [١]

يقوم مذهب بنتام الأخلاقي على أن الفعل الخير هو الذي يحقق السعادة لأكبر عدد من الناس، ومن ثم فمعيار أخلاقية الأفعال راجع إلى المنفعة العامة الناتجة عنها، وتصبح اللذة بناء على ذلك هي الخير الوحيد والألم هو الشر الوحيد. [٢]

ويقرر أن المنفعة مبدأ وغاية واقعة تحت سيطرة وسيادة اللذة والألم، ولابد أن يبدأ الإنسان بنفسه فيحقق لها السعادة لأنه الأعرف بنفسه، ولن يقدم أحد على خدمة الآخر إلا إذا كان في ذلك الفعل منفعة عائدة عليه أيضا. [٣]

وانتقد بنتام المصطلحات الأخلاقية التي وضعها فلاسفة الأخلاق والتي كانت سببا مباشرا في عدم شعور الناس بسلطان اللذة على الأفعال الإنسانية ومن هذه المصطلحات مصطلح الإلزام الذي يفيد التقييد، وكل هذا من وضع فلاسفة الأخلاق الذين لا يعملون أصلا بما يقولون، لأن كل إنسان يفكر في مصالحه الخاصة، وبدلا من مصطلحات الإلزام والوجوب هذه علينا أن نستبدلها بعبارة من طبيعة الإنسان أن يفعل كذا، وإذا فعل غير المناسب فينبغي أن نبحث عن السبب الدافع للوقوع في هذا الخطأ. [٤]

ولكن هل نخضع اللذات للحساب لقياسها وتقديرها؟

أكد بنتام أن العلم بمكنته ذلك لأنه يهتم بالأفعال، ولا يعبأ بالنوايا أو الضمير، ولكي يتحقق ذلك فرق بنتام بين نوعين من اللذات: المتجانسة، المتنافرة. ولقياس اللذات المتجانسة وضع بنتام أربع مجموعات: الشدة – التيقن من تحقق اللذة – الخصوبة – الشمول. ومن خلال هذه الخصائص نتمكن من تحويل اللذات إلى كميات للمفاضلة بينها، وإذا كان من اليسير قياس اللذات المتجانسة، فإنه من العسير قياس اللذات المتنافرة، ومن هنا لجأ بنتام إلى وسيلة

---

(١) انظر: مذهب المنفعة العامة- د. الطويل ٨٥- ٨٦،٩٣، وانظر: الفلسفة الخلقية –د. توفيق الطويل ١٩٥.

(٢)انظر: المشكلة الخلقية- د. زكريا إبراهيم ١٤٩-١٥٠، مذهب المنفعة العامة- د. الطويل ٩٨.

(٣) انظر : مذهب المنفعة العامة- د. توفيق الطويل ١٠٠.

(٤) انظر: نفس المصدر ١٠٢-١٠٤.

أخرى لقياسها فقرر أن أفضل وسيلة هي المال من حيث المقارنة بين أثمان هذه الأشياء المتنافرة. [(١)]

ولما سبق يبدو بكل وضوح أنه قد (تأكدت النزعة التجريبية في مذهبه، وأصبحت الأخلاقية مرهونة بنتائج الأفعال وآثارها) (وارتد إلى الواقع وربط الأخلاق به واعتقد أن مرجع سلوكنا إلى وجدان اللذة والألم) [(٢)]

تعقيب على فلسفة بنتام

لاحظنا من خلال فلسفة بنتام الأخلاقية أنها لا تعبأ إلا بالناتج عن العمل، ولم تعر اهتماما بالباعث عليه، وفي هذا خروج على فلسفة العقليين الذين تحدثوا كثيرا عن النية الدافعة إلى العمل، وهذا الموقف منه يتماشى تماما مع مذهبه التجريبي. [(٣)]

فلسفة بنتام وإن كانت انتصارا للتجريبية في عصره وأمدتنا بمعلومات نقيس من خلالها الأخلاق إلا أنها لم تسلم من سهام النقد، فالفيلسوف أخضع الأخلاق لمناهج الاستقراء وحدها، فأدى ذلك إلى حظر البحث عن تخطي الواقع إلى البحث في المثل الأعلى للسلوك الإنساني، وفلسفة الأخلاق لا تستقيم بغير التطلع إلى مثل إنساني أعلى يسير بمقتضاه سلوك الإنسان، ولكي يصح التقويم الذي وضعه بنتام ينبغي أن تكون اللذة مشعورا بها، أو حاضرة في الذهن، وتطبيق المعايير التي وضعها تجعل الفعل غير مشعور به، ومن ثم يفتقر القياس إلى الدقة، ومن هنا لا تخضع القيم أبدا للقياس الرياضي . وكيف نحول اللذة إلى قيمة نقدية؟ إذا صح هذا في الظواهر الطبيعية فإنه يستحيل بالمرة في المشاعر الإنسانية والوجدانات، وقد أصاب أرسطو حينما قال بتفاوت اللذات كما وكيفا. [(٤)]

وأصبح سعى الإنسان في العصر الحديث - بناء على هذه النزعة - وراء الوسائل دون البحث عن الغايات، وقد تناسوا أن الشيء لا يكون نافعا إلا بالقياس

---

(١) انظر: المشكلة الخلقية- د. زكريا إبراهيم ١٤٩، مذهب المنفعة العامة- د. توفيق الطويل ١٠٤-١٠٧.

(٢) الفلسفة الخلقية – د. توفيق الطويل ١٩٦، ١٩٨.

(٣) انظر: نفس المصر والصفحة .

(٤) انظر: مذهب المنفعة العامة- د. توفيق الطويل ١١٨-١٢١،الفلسفة الخلقية– د. توفيق الطويل ٢١٤.

إلى شيء آخر، ومن هنا تلاشى الإحساس بالقيم عند أتباع هذه النزعة. [١]

وهذه الفلسفة تستبعد الإلزام الخلقي من حياة الإنسان، فاللذة وحدها ليست دافعا للعمل عند جميع الأفراد، فهناك من يقوم بأفعال تجر عليه ألما، ولكنه يقبلها راضيا لأنها تتماشى مع عقيدة له أو مبدأ أو فكرة. [٢]

جون استوارت مل

لقد قوى هذا الاتجاه مع مل الذي يعد من أشهر النفعيين على الإطلاق، فقد حاول أن يتفادى النقد الذي وجه إلى سلفه، ولكنه بالطبع يتفق مع بنتام في المبادئ العامة المشكلة للاتجاه الحسي،(مضى مل في ركاب بنتام، فاعتبر الأخلاق علما وضعيا وليس معياريا) وأوجب (أن ينظر إلى الأخلاق من وجهة نظر طبيعية) و(وشارك مل أستاذه بنتام في إقرار المنفعة غاية للأفعال الإنسانية ومعيارا للأحكام الخلقية) [٣]ويتفق مع بنتام في أن (الفعل الخلقي لا يكون خيرا إلا متى حقق أعظم قدر ممكن من اللذة لأكبر عدد ممكن من الناس) [٤]

ولكنه يستدرك عليه فيقول: (ليست اللذة راجعة كلها إلى اللذة الجسمية وكميتها، وإنما هناك لذات تابعة للكيفية أي لاعتبارات معنوية، فمما لا شك فيه أن وظائفنا متفاوتة رتبة وقيمة، وأن حياة الوظائف العليا أشرف من حياة الوظائف الدنيا، يدل على ذلك أن ما من إنسان يرضى أن يستحيل حيوانا أعجم، اللهم إلا أفرادا جد قليلين، إن الإنسان البائس لخير من خنزير شبعان، وإن سقراط معذبا لخير من جاهل راض. هذا ما يراه الإنسان المهذب ويؤثره لنفسه وهو كذلك يؤثر المنفعة العامة على منفعته الخاصة، إذ إن النفعية تقتضى الفاعل الحكيم أن يعمل للآخرين كما يحب أن يعملوا له، وهذا الإيثار شرط الحياة الاجتماعية التي هي شرط المنفعة الشخصية) [٥]

(مل) إذن لا يقصر اللذة على الناحية الكمية فقط، بل يهتم أيضا بالناحية

---

(١) انظر : المشكلة الخلقية- د. زكريا إبراهيم ١٥٠ – ١٥١.

(٢) انظر : مذهب المنفعة العامة – د. توفيق الطويل ١٢٥، ١٢٩.

(٣) الفلسفة الخلقية– د. توفيق الطويل ١٩٩، ٢٠٠.

(٤) المشكلة الخلقية- د. زكريا إبراهيم ١٥٢، وانظر: مذهب المنفعة العامة- د. توفيق الطويل ١٤٤، تاريخ الفلسفة الحديثة- يوسف كرم ٣٧٠.

(٥) تاريخ الفلسفة الحديثة- يوسف كرم ٣٧٠.

الكيفية، فإذا كان بنتام لم يطالب الأناني بأن يتخلى عن أنانيته، فإن مل جعل (مبدأ المنفعة في مذهبه يقتضي من كل فرد أن ينصف غيره، ويخلص في طلب منافسه إنصافه لنفسه وإخلاصه في التماس لذاته ومنافعه الخاصة) [١]

وفي سبيل ذلك امتدح مل تضحية الفرد بنفسه من أجل المجموع ليتماشى مع مذهبه في تضحية المنفعة الخاصة في سبيل المنفعة العامة، فقد صرح مل بأن (ما يفعله البطل أو الشهيد طواعية واختيارا، من اجل شيء يسمو في نظره على سعادته الشخصية، ولكن ما حقيقة هذا الشيء الذي يرتفع عنده حتى على سعادته؟ إنه من غير شك سعادة الآخرين) [٢]

تعقيب على فلسفة جون استوارت مل

بالنظر في فكر مل الأخلاقي الذي تعرضنا له يبدو من الوهلة الأولى أنه لم يكن تجريبيا خالصا كبنتام، بل خلط بين المذهبين التجريبي والعقلي بطريقة جعلته عرضة للنقد.

ومن أهم الانتقادات الموجهة إليه : قوله باختلاف اللذات بعضها عن بعض كيفا في الوقت الذي قال فيه النفعيون بالكم فقط وهذا يعد خروجا منه على مذهبه ذلك لأن : (المذهب الحسي لا يعترف بالكيفية، فلا يعترف بقيم موضوعية للموجودات والوظائف، ولا بمغايرة الوظائف العليا للوظائف الدنيا بالماهية والطبيعة، وإنما الطائفتان عنده من نوع واحد، والاختيار بين اللذات متروك لتقدير المنفعة الحسية ليس غير، والمذهب الحسي يفسر الفضيلة بأنها اتخاذ الوسيلة غاية أي العمل لا لغاية، وصرف النظر عن المنفعة، فيجعل من الفضيلة عملا غير معقول، فيجيء مل ويوحد بين الكيفية العليا والمنفعة العامة والفضيلة، فيجعل من الفضيلة عملا معقولا مرادا لذاته مع مغايرته للمنفعة الحسية) [٣]

وخرج مل على منطق المذهب الحسي عند حديثه عن العلاقة بين منفعة الفرد ومنفعة المجموع؛ لأن هذا المذهب يقوم على الأثرة والأنانية، والتي تمثل

---

(١) مذهب المنفعة العامة- د. توفيق الطويل ١٤٦.

(٢) نفس المصدر ١٥٠.

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة- يوسف كرم ٣٧٠ – ٣٧١، وانظر: مذهب المنفعة العامة- د. توفيق الطويل ١٧٥-١٧٦.

مقياسا للأفعال الإنسانية، فكيف يخضع الإنسان مصلحته الشخصية لصالح المجموع، فالتجربة شاهدة على أن المصلحتين قد لا تتفقان دائما، وعند التعارض بينهما تقدم المصلحة الشخصية بلا شك، وهذا ما سبق أن أكده بنتام في فلسفته الأخلاقية، فقول مل هذا وإن حمد من الناحية الأخلاقية فإنه بلا شك مدعاة للنقد ما دام متابعا للتجريبية، والتي تجعله – والحالة هذه – متضادا مع نفسه فكرا ومبادئ. (١)

بدا جليا من خلال هذا النقد أن مل قدم خليطا غير مبرر بين المذهبين الحسي والعقلي، وهذا ما جعله منتقدا، وكان بنتام أشد تجريبية منه وظهر مذهبه متماسكا، ولم يبد هذا التضاد بين المبادئ والأفكار كتلك التي وجدناها عند مل، ولكنه لم يسلم من النقد أيضا.

المذهبان العقلي والتجريبي إذن عرضة للنقد والتفنيد لما يعتريهما من تناقضات، وقصور في التناول، وركز كل مذهب على جانب واحد في الإنسان متغافلا للجوانب الأخرى، حيث ركز العقليون على العقل وجعلوه مصدرا للأخلاق، بينا حصر التجريبيون المصدر والغاية في تحقيق اللذة الحسية.

وفي صفحاتنا القادمة نقف مع نظرة الإسلام لهذه المسألة، من خلال الإجابة على هذا التساؤل:

ما مصدر الأخلاق في الإسلام، وما علاقة العقل بالحواس؟

والإجابة على هذا التساؤل محل عنايتنا في المبحث القادم بحول الله تعالى.

---

(١) انظر : مذهب المنفعة العامة – د. توفيق الطويل ١٧٩.

المبحث الثالث

مصدر الأخلاق في الإسلام

الوحي الإلهي كمصدر للأخلاق الإنسانية

لقد خلق الله عز وجل الإنسان في أحسن تقويم، وهو أعلم بما يصلح خلقه بلا شك، وهدايتهم إلى ما فيه صلاحهم وبقاؤهم. وفي التنزيل: ﴿ **الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** ﴾ طه ٥٠

(قال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه، وهداه لما يصلحه.

وقال مجاهد: أعطى كل شيء صورته، لم يجعل خلق الإنسان كخلق البهائم، ولا خلق البهائم كخلق الإنسان، ثم هداه إلى منافعه من المطعم والمشرب والمنكح) [١]

وفي سبيل ذلك بين له الفضائل التي يجب التحلي بها، والرذائل التي ينبغي تجنبها، من خلال الأوامر والنواهي الواردة في الكتاب والسنة.

هذه الأوامر والنواهي شرعها الله تعالى لنا لنتخذها قدوة في جميع أعمالنا، واتباعها يحقق لنا سعادة الدنيا والآخرة، وهي ثابتة لا تتغير خالدة صالحة لكل زمان ومكان، وهي المقياس الخلقي الصحيح إذا فهمت فهما مستقيما. [٢]

ومن هنا كان مصدر المسلم الأخلاقي هو الوحي الإلهي، باعتبار أن الإنسان خليفة الله في أرضه، فلا بد من ثم أن يسير على هدي الله عز وجل الذي خلقه وهيأ له سبل الحياة في الأرض وعمارتها ؛ لذا كان (المرجع الأصلي الصحيح لمعرفة الخير والشر والصحيح والخطأ في ما يأتي الإنسان من الأعمال والأفعال هو هدي الله تعالى وإرشاده ليس غير) (مرجع السلطة من وراء القانون الخلقي هو الله تعالى وحده وأنه ينبغي أن يكون الحافز الحقيقي للإنسان على التخلق بالأخلاق العالية والخصال الشريفة والتنكب عن الخلاق الدنيئة والعوائد السيئة هو محبة الله تعالى والحرص على نيل رضاه والخوف من

---

(١) معالم التنزيل- للبغوي – تحقيق. محمد عبد الله النمر وآخرين - دار طيبة للنشر والتوزيع ط/ ٤ – ١٩٩٧م ٥/ ٢٧٦.

(٢) انظر: مباحث في فلسفة الأخلاق – محمد يوسف موسى ١٦٢.

سخطه وغضبه) [١]

فالوحي هو المصدر الأساسي للأخلاق في الإسلام، وعلى هديه يسير المسلم، ومن ثم لا نجد اختلافا بين المسلمين حول الفضائل أو الرذائل لوحدة المعيار الذي يستندون إليه، فلا مجال من ثم للاختلاف والتنازع، ولم يكونوا بحاجة إلى الآراء الفلسفية في مختلف عصورها.

(ومفكرو الإسلام على اتفاق في إقامة المبادئ الخلقية على أساس من الإيمان بالله على نحو ما ورد في القرآن الكريم) و (الأخلاق لا تستقيم قط بغير الإيمان بالله وصفاته التي صدرت عنها المبادئ، والاعتقاد في خلود الروح وعقبى الدار)[٢]

يقول ابن حزم [٣] **رحمه الله**: (هل صلاح العالم وانكفاف الناس عن القتل الذي فيه فناء الخلق وعن الزنا الذي فيه فساد النسل وخراب المواريث وعن الظلم الذي فيه الضرر على الأنفس والأموال وخراب الأرض وعن الرذائل من البغي والحسد والكذب والجبن والبخل والنميمة والغش والخيانة وسائر الرذائل إلا بشرائع زاجرة للناس عن كل ذلك ؟) [٤]

ولا يخفى المكانة العليا للأخلاق في الإسلام، فهي (روح الرسالة الإسلامية، وأن النظام الإسلامي التشريعي يعد صورة مجسمة لهذه الروح) [٥]

فالأخلاق في الإسلام (نابعة من السماء و مادتها نابعة من الأرض، ولكن لما كان خالق الصورة وخالق المادة هو الله فمصدر الأخلاق ومنبعها إذن هو الله الذي خلق الصورة وفقا للمادة وخلق المادة وفقا للصورة) [٦]

---

(١) نظرية الإسلام الأخلاقية – أبو الأعلى المودودي – مكتبة الشباب المسلم –دمشق ١٩٥٦م ٤٩.

(٢) الفلسفة الخلقية – توفيق الطويل ١٣٨، ١٣٩.

(٣) ابن حزم : ٣٨٤ – ٤٥٦ ه علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام، فقيهاً حافظاً، من أهم كتبه " الفصل في الملل والأهواء والنحل " و " المحلي " و " جمهرة الأنساب " و " ديوان شعر " و" التقريب لحد المنطق والمدخل إليه". انظر الزركلي: الأعلام ٤ /٢٥٤ - ٢٥٥.

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل – ابن حزم - مكتبة الخانجي – القاهرة ١/ ٧٩ – ٨٠.

(٥) الاتجاه الأخلاقي في الإسلام – مقداد يالجن ٥٤.

(٦) نفس المصدر ١٩٥ .

وكانت السنة النبوية مبينة لما ورد في الكتاب، وبين النبي ﷺ مكارم الاخلاق وأتمها، فقال: " **بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**" [(١)]

وكان النبي ﷺ المثل الأعلى في الخلق الشريف، فقال تعالى" وإنك لعلى خلق عظيم" القلم ٤.

وفي إطلاق الخلق بمعنى الدين يدل على القيمة الكبرى للأخلاق حيث وضعت مرادفة للدين؛ لذا كانت الشريعة كلها مبنية على الأخلاق.

ووصفت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها خلق النبي ﷺبقولها: " كان خلقه القرآن" [(٢)]

ويقرر ابن حزم أن من منافع النبوة: (إصلاح الأخلاق النفسية وإيجابِ التزامُ حسنها: كالعدل، والجود، والعفة، والصدق، والنجدة في موضعها، والصبر، والحلم، والرحمة، واجتناب سيئها كأضداد هذه التي ذكرنا)[(٣)]

وهذا من التزكية الواردة في حق النبي ﷺ، من ذلك قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**) الجمعة ٢.

ولم يترك الله تعالى الإنسان بلا هاد بل جعل في فطرته ما يمكنه من إصلاح نفسه وتهذيبها، أو ما يفسدها في الوقت ذاته، ومسئول بلا ريب عن اختياره للسبيل الذي يسلكه، فمن سلك سبيل الخير فقد رشد، ومن اتبع سبيل الشر فقد غوى.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك حديث رقم ٤٢٢١ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه. تعليق الذهبي في التلخيص: على شرط مسلم. المستدرك على الصحيحين – للحاكم = =النيسابوري- تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية – بيروت ط١/ ١٩٩٠ م ٢/ ٦٧٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب جامع صلاة الليل برقم: (٧٤٦)

(٣) رسائل ابن حزم الأندلسي – تحقيق. إحسان عباس – المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت – ط١/ ١٩٨١م ٣ / ١٣٤.

قال تعالى: ﴿ **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾ البلد ١٠.

(قال أكثر المفسرين: طريق الخير والشر، والحق والباطل، والهدى والضلالة) [١]

والآية تدل على أن الإنسان (مفطور في أصل الخلقة على أن يصلح أفعاله وأخلاقه وعلى أن يفسدها، وميسر له أن يسلك طريق الخير والشر) [٢]

ولأن القرآن الكريم والسنة المطهرة قد بينا الطريق المستقيم الذي ينبغي للإنسان أن يسلكه ليحقق الفضيلة، فإن المسلمين في الصدر الأول لم يكون بحاجة أبدا إلى النظر العقلي المجرد في أساس الخير والشر. [٣]

إذن مصدر الأخلاق في الإسلام هو الوحي الذي بين له ووضح الفضائل والرذائل، فهل كانت نظرة الإسلام للعقل والحس فردية كما رأينا عند العقليين والتجريبين، أم نظرة متكاملة شاملة؟ يتضح هذا من خلال بيان العلاقة بين العقل والحس في الإسلام، وهذا محل حديثنا في الأسطر القادمة بحول الله تعالى وقوته.

علاقة العقل بالحواس في الإسلام

العقل له مقام كريم في الإسلام، وقد تعددت الآيات الكريمة التي تدعو إلى استخدام العقل، وذمت من يتبع الهوى والتقليد الأعمى مهملا لعقله.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ آل عمران ١٩٠.

وقوله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى** ﴾ طه ١٢٨.

---

(١) معالم التنزيل – للبغوي ٨/ ٤٣١.

(٢) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين – الراغب الأصفهاني- طبع في بيروت ١٣١٩ه ٨٩.

(٣) انظر: مقدمة في علم الأخلاق – د. محمود زقزوق – دار الفكر العربي القاهرة – ط٤ / ١٩٩٣م ٥٣- ٥٤.

وقولـه تعـالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**﴾ الحج ٤٦.

وذم الله تعالى المعطلين عقولهم بقوله: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ**﴾ البقرة ١٧٠.

وقولـه عـز وجـل: ﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ الأنفال ٢٢.

والعقل محط التكليف والتشريف للإنسان، ولكن ليس حاكما على النص الشرعي؛ بل هو مفسر وشارح ومستدل، وليس هذا في الجانب المعرفي فحسب بل في الجانب الأخلاقي أيضا، ومن ثم دار علماؤنا حول النص الشرعي ولم يخرجوا عنه. فبينا شاد العقليون فلسفتهم الأخلاقية حول العقل الإنساني وبلغوا به شأوا كبيرا، إذا بالإسلام يضع العقل في موضعه اللائق به؛ ليؤدي دوره بلا إفراط أو تفريط.

والإنسان (لم يصر إنساناً إلاّ بالفكر والعقل الذي يميز بين الخير والشر والجميل والقبيح. وإلى العقل أشار الله تعالى بقوله: ﴿**وصوَّركم فأحسن صوَرَكم**﴾ سورة غافر ٦٤. فالإنسان بعقله صار معدن العلم ومركز الحكمة"[(١)]

والإسلام لم يفرض على العقل البشري أمورا يحكم العقل باستحالتها وعدم استيعابها؛ بل الأخلاق في الإسلام تعتمد على أحكام معقولة مقبولة، ولا يوجد فيها أي نوع من التحكم غير المبرر. [(٢)]

فالعقل يدرك ويتدبر الحكمة من الأوامر والنواهي الأخلاقية، فيكون من ثم وازعا ودافعا للعمل، ولا فائدة من معرفة بالفضائل أو الرذائل ولا يعقبها عمل.

---

(١) تفصيل النشأتين – الراغب الأصفهاني ٢٣.

(٢) انظر: كلمات في مبادئ علم الأخلاق – د. محمد دراز -مؤسسة هنداوي ٢٠١٧م ٣١.

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ** ﴾ الصف ٢، ٣.

فالعقل (قوة مدركة في الإنسان خلقها الله فيه ليكون مسئولا عن أعماله، ولهذا بين الله تعالى أن سبب الانحراف والضلال هو عدم العمل بمقتضى العقل ﴿ **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ الملك ١٠) [(١)]

وشرف الأشياء بتمام تحقيق الغرض من وجودها، ودناءتها بفقدان ذلك المعنى؛ لذا فإن الإنسان إذا لم يحقق المعنى الذي من أجله خلق كانت البهيمة خيرا منه. قال تعالى: ﴿ **إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ** ﴾ الأعراف ١٧٩. [(٢)]

إذن العقل له دوره في الإسلام، فهو الذي يتلقى النص ويفهمه ويستوعبه ويبلغه للآخرين، ويدفع صاحبه للعمل، وهنا يقف دور العقل ولا يتعدى حدوده، وليس له حكم على النص الشرعي بحال.

وإذا تدخل العقل ورسم الطريق للنفس بأن تفعل هذا وتترك ذاك وهذا حق وذاك باطل، فإن الناس لا يتفقون – والحالة هذه – في الحكم على الأعمال الإنسانية، فإلى أي عقل نحتكم؟

(ولا يمكن البتة إصلاح أخلاق النفس بالفلسفة دون النبوة ؛ إذ طاعة غير الخالق - عز وجل- لا تلزم وأهل العقول مختلفون في تصويب هذه الأخلاق) [(٣)]

والواقع يؤكد أن العقل (وسيلة يختلف حكمها في مختلف الأحوال والأوضاع، فهي تحكم على الأشياء المختلفة المتباينة بالخير والشر إذا استعملها أناس مختلفون، واستخدمتها طبقات متفرقة من الناس في أزمنة مختلفة وأوضاع شتى) [(٤)]

---

(١) الاتجاه الأخلاقي في الإسلام – مقداد يالجن ١٧٠.

(٢) انظر: تفصيل النشأتين – الراغب الأصفهاني ١٠٧ - ١٠٨.

(٣) رسائل ابن حزم ٣ / ١٣٤، وانظر: تفصيل النشأتين – الراغب الأصفهاني ٦٥ وما بعدها.

(٤)نظرية الإسلام الأخلاقية – أبو الأعلى المودودي ٣٧ .

وليس بين العقل والأدوات الحسية أي تنازع؛ بل بينهما تكامل وانسجام إذا أحسن الإنسان استعمالها.

فالعقل يتدبر وينبه الحواس للعمل، ومن ثم يكون الوصف بالخير أو الشر.

وكذلك لا غنى للعقل عن الحواس؛ إذ كيف يحكم العقل على الأشياء دون تصورها؟ فالحواس تمد العقل بالأشياء الجزئية الأولية ثم يقوم العقل بإعمال مبادئه فيها.

(والأخلاقية الصحيحة عندنا لا تستقيم ما لم تظل شخصية الإنسان سليمة متكاملة ..وهذا يتعارض مع الفصل الكامل بين شطريها من عقل وحساسية، والقانون الأخلاقي يتمشى مع منطق العقل لا محالة، ولكن هذا لا يعني قط أنه لا يستمد إلا من العقل، إنه مساير للعقل بالقياس إلى الغاية التي نتوخاها من وراء سلوكنا، وهو إن طالبنا بالحد من جموح الحس وتنظيم مطالبه، لا يقتضينا محاربته ولا إغفال نوازعه) [١]

ولا يمكن بحال أن تكون المنفعة المادية هي الموجه للإنسان، وإلا صار عبدا لشهواته وملذاته، فتحل الأنانية والأثرة، ويغيب الإيثار والتعاون بين الأفراد، ويكون الانفصام التام بين الدنيا والآخرة.

وفي الحديث الشريف: (تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض) [٢]

وقد استحق الدعاء عليه بالتعس (لأنه أوقف عمله على متاع الدنيا الفاني وترك العمل لنعيم الآخرة الباقي) [٣]

هذا التكامل بين النص والعقل والحس في الإسلام يميز الأخلاق الإسلامية عن أي مذهب فلسفي، بنظرة واقعية بعيدة عن المثالية والأثرة، فالإنسان روح وجسد، يحيا في الدنيا وغايته الآخرة. أما المذاهب الفلسفية فهي أحادية النظرة

---

(١) الفلسفة الخلقية – د. توفيق الطويل ٤١٨.

(٢) صحيح البخاري – تحقيق/ د. مصطفى ديب البغا- دار ابن كثير، اليمامة – بيروت ط٣ /١٩٨٧م ٣ / ١٠ ٥٧ - كتاب الجهاد والسير- باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (حديث ٢٧٣٠)

(٣)شرح صحيح البخاري - لابن بطال- تحقيق : أبو تميم ياسر بن إبراهيم- مكتبة الرشد - السعودية / الرياض – ط٢/ ٢٠٠٣م ٥/ ٨٣.

تعلي من جانب في الإنسان وتهمل الباقي، فمن مغالية في العقل، ومن متطرفة في الحس، دون معيار واضح يحدد للإنسان ماهيات الأعمال من خير أو شر، ومن ثم كان النقد الحاد لها.

(الأخلاق في الإسلام ليست أخلاقا واحدية الجانب – كما هو الشأن في الكثير من النظريات الأخلاقية – وإنما هي أخلاق تمتاز بشمولها وكمالها الذي لا يجاريه أي كمال) [١]

فأي الطرق أهدى سبيلا؟ إنه المنهج الإسلامي بلا شك الذي يسعد الإنسانية إذا تمسكت به، وسارت على نهجه القويم.

---

(١) مقدمة في علم الأخلاق – د. محمود زقزوق ٧٤.

الخاتمة

في ختام هذه الدراسة يجدر بنا أن نقف على أهم النتائج وهي:

أولا- علم الأخلاق له حضور قوي في الدرس العقدي والفلسفي، وظهر التباين بين الاتجاهات المختلفة حسب المبادئ التي ينطلق منها أصحاب كل اتجاه.

ثانيا – العقليون جعلوا العقل هو مصدر الأخلاق، وهو الذي يميز بين الخير والشر في السلوك، وكان منهم الغالي والمعتدل، ومع نظرتهم هذه للعقل أهملوا العواطف والانفعالات الإنسانية- وبعضهم قال بإماتتها – التي أثبت الواقع مدى تأثيرها على الإنسان، وكان الأليق بهم أن يوجهوا الانفعالات الإنسانية الوجهة الصحيحة؛ ليتمكن الإنسان من أداء رسالته في الحياة، وحتى المعتدلين منهم جعلوا العقل في النهاية هو المصدر والغاية ولا سعادة إلا من خلاله، وهذه النظرة الأحادية يلزم عنها تساؤل لا مفر منه: ما المعيار الحاكم للعقل الإنساني مع وجود هذه الاختلافات بين العقول، ولو اتفقوا على بعض الأفعال فسيختلفون في غيرها بلا ريب، فإلى أي عقل نحتكم إذن؟

ثالثا- النظرة الأحادية أيضا كانت سمة المذهب التجريبي، فقد أعلوا من جانب اللذة والمنفعة المادية، فالخير في تحقيق المنفعة، والشر في فواتها أو تحقق الضرر، مهملين المبادئ الفطرية، او جاعلين العقل مجرد مشبع للذة الحسية فحسب، وأصبح المعيار هو النظرة الفردية للأشياء، ونتج عن هذا أيضا غياب المعيار الأخلاقي الذي يلزم الكافة بعيدا عن الرغبات والشهوات الفردية؛ حتى القائلين منهم بالمنفعة العامة جعلوا الأخلاق خاضعة لمنهج الاستقراء مع تعذر قياسه تجريبيا، فغاب من ثم البحث عن المثل العليا للسلوك الإنساني، وتلاشى الإلزام الخلقي من حياة الإنسان.

رابعا – بعيدا عن النظرة الأحادية عند المذهبين العقلي والتجريبي كانت النظرة الشمولية في الإسلام التي نظرت للإنسان روحا وبدنا، عقلا وحسا، يحيا في الدنيا وغايته الدار الآخرة، بلا انفصام بين العقل والحس؛ بل التكامل هو العلاقة الثابتة بين الإدراكين، و اكتفى كل منهما بأداء دوره في الحياة غير متعد لحدوده جاعلا رضا الله تعالى والفوز بنعيم الآخرة غاية، ومن ثم كان مصدر الأخلاق في الإسلام هو الوحي الإلهي؛ لذا كان المعيار واضحا ثابتا، فغاب الاختلاف والتنازع، ولم نعد بحاجة إلى الآراء والمذاهب الفلسفية، وهذا من منافع الوحي الشريف.

فهرس المراجع

- **القرآن الكريم**
- الاتجاه الأخلاقي في الإسلام – مقداد يالجن- مكتبة الخانجي بمصر ط١/ ١٩٧٣م.
- إحياء علوم الدين – الغزالي – دار المعرفة بيروت – ب. ت.
- الأعلام – الزركلي- دار العلم للملايين لبنان ط١٥/ ٢٠٠٢م .
- تاريخ الأخلاق - د. محمد يوسف موسى- دار الكتاب العربي مصر ط/ ٣ – ١٩٥٣م .
- تاريخ الفلسفة – اميل برهييه – ترجمة. جورج طرابيشي -دار الطليعة بيروت ط٢/ ١٩٩٣ م.
- تاريخ الفلسفة الحديثة - يوسف كرم- مؤسسة هنداوي القاهرة ٢٠١٢م.
- تاريخ الفلسفة اليونانية - يوسف كرم- مؤسسة هنداوي ٢٠١٤م.
- تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق - كانط – ترجمة عبدالغفار مكاوي- مراجعة عبدالرحمن بدوي – مؤسسة هنداوي ٢٠١٧م .
- تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية- د. محمد مهران- دار قباء القاهرة ١٩٩٨م.
- التعريفات – الجرجاني- تحقيق. محمد صديق المنشاوي – دار الفضيلة القاهرة – إيداع ٢٠٠٤م.
- تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – تحقيق. سامي محمد سلامة دار طيبة للنشر والتوزيع ط٢/ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
- تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين – الراغب الأصفهاني- طبع في بيروت ١٣١٩هـ.
- تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- ابن مسكويه- المطبعة الحسينية المصرية ١٣٢٩هـ.
- الجامع لأحكام القرآن الكريم – القرطبي – تحقيق. عبدالله عبدالمحسن التركي – مؤسسة الرسالة بيروت – ط١/ ٢٠٠٦م.
- حكمة الغرب – برتراندرسل – ترجمة: د. فؤاد زكريا – مؤسسة هنداوي

٢٠٢١م.
- دراسات في فلسفة الأخلاق – د. محمد نصار- مكتبي لطباعة الأوفست ١٩٨١م.
- رسائل ابن حزم الأندلسي – تحقيق. إحسان عباس – المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت – ط١/ ١٩٨١م.
- شرح صحيح البخاري - لابن بطال- تحقيق : أبو تميم ياسر بن إبراهيم- مكتبة الرشد - السعودية / الرياض – ط٢/ ٢٠٠٣م.
- صحيح البخاري – تحقيق/ د. مصطفى ديب البغا- دار ابن كثير، اليمامة – بيروت ط٣ /١٩٨٧م.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل – ابن حزم - مكتبة الخانجي – القاهرة . ب . ت.
- الفلسفة أنواعها ومشكلاتها – هنترميد- ترجمة د. فؤاد زكريا – دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة ط٢/ ١٩٧٥م.
- الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها – د. توفيق الطويل- دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٧م.
- الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها – د. أميرة حلمي مطر- دار قباء القاهرة ١٩٩٨م.
- قصة الفلسفة الحديثة – زكي نجيب محمود – لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦م.
- كتاب الأخلاق - أحمد أمين – مؤسسة هنداوي القاهرة ٢٠١٢م.
- كلمات في مبادئ علم الأخلاق – د. محمد دراز -مؤسسة هنداوي ٢٠١٧م.
- لسان العرب - ابن منظور – دار صادر بيروت ط١ – ب .ت.
- مبادئ الفلسفة – ديكارت – ترجمة: د. عثمان أمين – مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠م.
- مباحث في فلسفة الأخلاق – د. محمد يوسف موسى – مؤسسة هنداوي ٢٠١٨م.
- المستدرك على الصحيحين – للحاكم النيسابوري- تحقيق : مصطفى عبد

القادر عطا- دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى١٩٩٠م.
- مشكلات فلسفية – د. توفيق الطويل وآخرون – وزارة المعارف المصرية – جريدة الصباح ١٩٥٤م.
- المشكلة الخلقية – د. زكريا إبراهيم- مكتبة مصر ١٩٦٦م.
- مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق – د. توفيق الطويل- مكتبة النهضة المصرية – ط١/ ١٩٥٣م.
- معالم التنزيل- للبغوي – تحقيق. محمد عبد الله النمر وآخرين - دار طيبة للنشر والتوزيع ط/ ٤ – ١٩٩٧م.
- المعجم الفلسفي - د. جميل صليبا- دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٨٢ م.
- المعجم الفلسفي - د. مراد وهبة- دار قباء الحديثة ٢٠٠٧ م.
- المعجم الفلسفي – مجمع اللغة العربية – الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية – القاهرة ١٩٨٣م.
- مقدمة في علم الأخلاق – د. محمود زقزوق – دار الفكر العربي القاهرة – ط٤ / ١٩٩٣م.
- موسوعة علماء الكيمياء – ماجد العدوان – دار عالم الثقافة الأردن ط١/ ٢٠٠١م.
- نظرية الإسلام الأخلاقية – أبو الأعلى المودودي – مكتبة الشباب المسلم – دمشق ١٩٥٦م.
- نقد العقل العملي – كانط – ترجمة- غانم هنا – المنظمة العربية للترجمة بيروت ط١ / ٢٠٠٨م.

فهرس الموضوعات